إِعَانَةُ المُتَفَهِّمِ
فِي آدَابِ المُتَعَلِّمِ

تأليف :

العلامة الشيخ محمد الحسن بن أحمد الخديم

أطال الله بقاءه

تقديم

القاضي محمد يحظيه بن المختار الحسن

تحقيق وإشراف

الأستاذ محمد سالم بن محمد الحسن

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله تعالى على محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وصحابته الأكرمين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد.

فإن هذا الكتاب الذي نتشرف ونسعد بتقديمه لك اليوم أيها القارىء الكريم ستحصل فيه على ضالتك المنشودة في بيان أخصر الطرق وأسلمها لسيرك الجاد لاكتساب العلم وتحصيله.. إنه مجموعة معارف ودراسات متكاملة متخصصة في بابها تأخذ بأيدي الطالبين والمدرسين لتنير الطريق أمامهم للوصول بسلامة ونجاح للهدف المقصود.

كما يشتمل الكتاب كذلك ــ ضمن ما يحتوي من المعارف المختلفة ــ على تنظيرات ودراسات في علم النفس الإنسانية وعلى بحث مركز هادف في علم الطب.

وبمطالعة هذا الكتاب يجد الطالب والمتعلم أمامه مجموعة آداب وشرائط لتحصيل العلم لا غنى عنها كما أنه سيطلع على كثير من هذي سلفنا الصالح في الطلب.

ويمكن للمطالع لهذا الكتاب أن يخرج بملاحظتين :

ــ الأولى من الناحية الشكلية وهي جودة النظم ورصانة أسلوبه وثراؤه البياني.

ــ الثانية من الناحية الجوهرية وهي كثرة شحنته العلمية وكثرة إحالاته الفنية إلى مختلف مصادر العلم.. كما تمتاز تلك الإحالات بجودة

التضمين والاستخدام بالإشارة اللطيفة والصياغة المبدعة للأثر الأدبي المقتبس وسأترك بينك ـــ عزيزي القارئ وبين الكتاب فلا أريد أن أحدثك عن حاضر.

فهنيئا للمكتبة الإسلامية وللوسط العلمي عموما ببزوغ فجر هذا الكتاب في زمن قصرت فيه الهمم وكادَ العلم أن يأذن بالرحيل.

وجزى الله تعالى أحسن جزائه فضيلة العلامة قدوة عصره وعالم علماء دهره مربِّي المريدين وحجة العارفين الإمام المجدد المفسر المحدث اللغوي الشيخ محمد الحسن بن أحمد الخديم مدَّ الله في أيامه، وأدام علينا وعليه سابغات إنعامه.

وإنني وأنا أصف هذا الشيخ ببعض نعوته لأردد مع مجد الدين الفيروزبادي وقد سئل عن أحد اجلة دهره بعد أن أثنى عليه ببعض مافيه :

وما علي إذا ما قلت معتقدي ... دع الجهول يظن الحق بهتانا
والله والله العظيم ومن ... أقامه حجة للدين برهانا
ما قلت إلا قليلا ما مناقبه ... ما زدت إلا لعلي زدت نقصانا

القاضي محمد يحطيه بن المختار الحسن
انواكشوط بتاريخ 30/10/94

حَمْداً لِمَنْ قَدْ خصَّ أَبْنَا ءَادَمِ   بالعِلْمِ والعَمَلِ بين العالَـمِ
ثُمَّ عَلَى رَسُولِ مَوْلاَنَا الحَكَمْ   والآلِ والصَّحْبِ يَنَابِيعِ الحِكَمْ

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير العرب والعجم، المبعوث رحمة إلى خير الأمم، وعلى آله وصحابته أجمعين وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد : فيقول المضطر إلى رحمة ربه، أسير ذنبه، ورهين كسبه : محمد الحسن ابن أحمدُّ الخديم اليعقوبي الجوادي، لطف الله به وبأحبته في هذه الدار وفي يوم التنادي : هذا تعليق لا طويل مُمِلٌّ، ولا قصير مُخِل، سميته : «إعانة المتفهم في نظم آداب المتعلم» عساه أن يعين على فهمه وإقرائه، فإتمام العمل خير من ابتدائه، وربُّ البيت بما فيه أدرى، فكنت ببث سرِّ معانيه أحرى. وهذا النظم قد كنت عقدت به «تعليم المتعلم طريق التعلم» مصنف برهان الدين إبراهيم الزرنوجي الحنفي (نسبة لزرنوج بفتح فسكون بلد بما وراء النهر توفي حدود سنة عشر وستمائة) وأكثر اعتمادي في شرح الألفاظ على شارحه الشيخ إبراهيم بن إسماعيل، بَيْدَ أني قيدت فيه من شوارد الفوائد، ونكت الطرائف والتلائد، ما تُقَرُّ به عين الودود، وتقذى به عين الحسود، فجاء جامعا من حكم أولي الألباب، ما لا يستغني عنه أهل الآداب، يتبارى در نثره وجمال نظامه، في ميادين حسنه وانسجامه، فيهتز له من الشوق والطرب، من تهزه أريحية الأدب، وذلك من فضل ربنا المالك، فله الحمد والشكر على كل ذلك، وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

«حمدا لمن قد خص أبنا ءادم» أي فضلهم **«بالعلم والعمل بين العالم»** بفتح اللام الخلق كله أو ما حواه بطن الفلك. فالعلم هو الخاصية التي امتاز بها الإنسان عن سائر الحيوان، وبها استحق أن يتوجه إليه الخطاب من ربِّ الأرباب. **«ثم على رسول مولانا الحكم»** هو الحاكم المحكم، والقاضي المسلم، الذي لا رادَّ لحكمه، ولا معقب لقضائه، كما في المقصد الأسنى للغزالي. **«والآل والصحب ينابيع الحكم»** جمع حكمة وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه. والينابيع : جمع ينبوع :

وَتَابِعِيهِـــمُ مِـــنَ السَّلَامِ ... هَوَاطِـــلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ
وَبَعْدُ فَالقَصْدُ بِذَا المَنسُوجِ ... حَوْكُ الَّذِي غَزَلَهُ الزَّرْنُوجِي
لَمَّا رَأَى الطَّالِبَ لِلعِلْمِ يَجِدْ ... وَالعِلْمَ أَوْ ثَمْرَةَ عِلْمٍ لَمْ يَجِدْ
إِذْ كَانَ لَمَّا أَخطَأَ الطَّرِيقَا ... وَتَـرَكَ الشَّرْطَ بِـذَا خَلِيقَـا
فَبَيَّـــنَ الطَّرِيـــقَ لِلتَّعَلُّـــمِ ... مِن حِكَمِ الكُتُبِ وَأَهْلِ الحِكَمِ

عين الماء، والجدول الكثير الماء. «و» على «تابعيهم من السلام» عز وجل، قال في المقصد الأسنى : هو الذي تسلم ذاته عن العيب، وصفاته عن النقص، وأفعاله عن الشر. انظر بقية كلامه. «هواطل الصلاة والسلام» أي أمطارهما الدائمة، مبتدأ خبره على رسول... إلخ. والصلاة من الله : الإنعام، ومن العباد : طلبه منه سبحانه ـــ كانت على نبي أو غيره، صدرت من ملك أو غيره ـــ، والسلام منه تعالى : إنعامه بالسلامة من المكاره، ومن العبد طلبه منه سبحنه. وهما واجبان مرة في العمر على المشهور، وما زاد فمندوب، كما في نور البصر. «وبعد فالقصد بذا المنسوج» يعني المنظوم «حوك» : نسج «الذي غزله» يعني ألفه «الزرنوجي» رحمه الله تعالى، وقد ألف كتابه هذا «لمّا» : حين «رأى الطالب للعلم» في زمانه كثيرا ما «يجد» أي يسعى، يقال : جدّ في الأمر وأجدَّ فيه «والعلم» مفعول مقدم «أو ثمرة علم» من العمل به، ونشر مسائله بالتعليم «لم يجد» بل يحرم من ذلك عياذا بالله تعالى «إذ كان» الطالب للعلم «لما أخطأ الطريقا» أي في طريق طلبه «وترك الشرط» أي شرطه الذي يذكره في هذا الكتاب «بذا» صلة «خليقا» خبر كان، أي جديرا بذا أي بأنه لا يصل إلى العلم، ولا إلى ثمرته، فكل من أخطأ الطريق الموصل إلى المطلوب ضل، ولا ينال المقصود قل أو جل «فبيّن» للطلاب «الطريق للتعلم من حكم الكتب» التي رأى فيها «و» من حكم أشياخه «أهل الحكم» التي سمعها منهم. النووي : في الحكمة أقوال كثيرة مضطربة اقتصر كل من قائليها على بعض صفاتها، وقد صفا لنا منها أنها عبارة عن العلم المتصف بالإحكام المشتمل على المعرفة بالله، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس والأخلاق، وتحقيق الحق، والعمل به، والصد عن اتباع الهوى والباطل، والحكيمُ : من له ذلك. انظر شرح الإحياء. وقد قلت :

فهاكَ مِمَّا صَاغَ فِي التَّعْلِيمِ ... قِلادَةً كَالْجَوْهَرِ النَّظِيمِ
تُحِيطُ بِالجيدِ لَدى الإِفَادَهْ ... وَذَاكَ حَسْبُكَ مِنَ الْقِلادَهْ
جَعَلَهَا اللَّهُ لِكُلِّ سَاعِ ... فِي أَمْرِهَا مِن أَحْسَنِ المَسَاعِي

فصل في ماهية العلم والفقه

هَذا وَحَدُّ العِلْمِ وَصْفٌ يَظْهَرُ ... بِهِ لِمَنْ قَامَ بِهِ ما يُذْكَرُ

الحِكْمَةُ الْفِقْهُ بِدِينِ الأَظْهَرُ ... هَذا وبِالْفَهْمِ وَعَقْلٍ فَسَّرُوا
وَالْقُرْبُ مَعْنَى لاَحَ بَيْنَ الْكُلِّ ... فَالْفِقْهُ بِالْفَهْمِ وَذا بِالْعَقْلِ

«فهاك مما صاغ في التعليم» لطريق التعلم **«قلادة كالجوهر النظيم»** في الحسن **«تحيط»** تلك القلادة **«بالجيد لدى الإفادة»** لمطالعها فليس فيها قصر مخل **«وذاك حسبك من القلادة»** يقال حسبك من القلادة ما أحاط بالجيد، يعني أنه اقتصر في النظم على ما لابد منه وترك ما وراء ذلك، فقد تكون في ذلك الكتاب حكاية طويلة مثلا فيأخذ مفادها ونتيجتها فقط.

ولما ذكر النووي في الإيضاح أن كتاب الأذكار الذي صنفه لا يستغني طالب الآخرة عن مثله.. قال محشيه الهيتمي : ليس في هذا شيء من التَّبَجُّح، ولا الثناء على النفس، بل هو من التحدث بالنعمة المأمور به، ومن الدلالة على الفائدة في محلها، ويجري ذلك في نظائره الواقعة في كلام المصنفين. **«جعلها الله لكل ساع في أمرها»** بقراءة أو إقراء أو تحصيل أو غير ذلك **«من أحسن المساعي فصل في ماهية العلم والفقه»** أي حقيقتهما، وخص الفقه من أنواع العلم بالبيان؛ إذ به تحصل سعادة الدارين. **«هذا وحد العلم وصف يظهر به»** ويتجلى **«لمن قام به»** ذلك الوصف **«ما يذكر»** بالتركيب أي ما يصح أن يذكر، ويمكن أن يعبر عنه.. من موجود ومعدوم، فخرج الظن والجهل؛ إذ لا يتجلى فيهما، وكذا اعتقاد المقلد؛ لأنه عقدة على القلب، وليس فيه انكشاف. قال السيد الشريف : أحسن ما قيل في الكشف عن ماهية العلم هو أنه صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت

مَعْرِفَةُ النفسِ لِمَا لَهَا وَمَا هُوَ عليها حَدُّ فِقْهٍ رُسِمَا
لَدَى الإِمَامِ الحَنَفِيِّ الشَّهْمِ أو هُوَ عِرْفَانُ دَقِيقِ العِلْمِ

هي به، ومعناه أنه صفة ينكشف بها لمن قامت به ما من شأنه أن يذكر — انكشافا تامًا، لا اشتباه فيه. انظر شرح الإحياء ففيه خمسة عشر تعريفا للعلم. **«معرفة النفس لما لَها»** من الخير **«وما هو عليها»** سواء كان من الاعتقاديات أو الوجدانيات أو العمليات، فدخل في الاعتقاديات علم الكلام، وفي الوجدانيات علم الأخلاق والتصوف كالزهد والصبر والرضا وحضور القلب في الصلاة ونحو ذلك، وفي العمليات الصلاة والزكاة والصوم والبيع ونحوها كما في شرح الإحياء. **«حد فقه رسما»** أي حُدَّ بذلك **«لدى الإمام الحنفي الشهم»** : الذكي الفؤاد المتوقد. شهم ككرُم. وهذا المعنى أعم من الفقه الذي يعرف به أحوال المكلفين. قال في الإحياء : ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عز وجل : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾ الآية[1] وما يحصل به التخويف والإنذار هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف؛ بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه، كما يشاهد من المتجردين له. **«أو هو»** أي الفقه حده **«عرفان دقيق العلم»** أي غامضه. اليوسي : لاشك أن أعلى العلوم وأجلها ما يستثمر منه بإذن الله تعالى معرفة الله تعالى وما له من جمال وجلال ومعرفة أفعاله، وحكمته في أرضه وسمائه وملكه وملكوته، ومعرفة أحكامه، وذلك كله مضمون علم الشريعة، الظاهر منها والباطن، وهو الفقه في الدين، وهو الحكمة، وإن شئت قلت : معرفة ما للنفس وما عليها، وإن شئت قلت : معرفة الله وما له ومعرفة النفس وما عليها، وأحدهما يغني عن الآخر؛ لأن ما على النفس هو ما لله تعالى. قال في التنوير : فالفقيه من فهم سرّ الإيجاد فعمل له، وهذا هو الفقه الحقيقي الذي من أعطيه فقد أعطي المنة العظمى، ولي هذا قال مالك رضي الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية وإنما

---

(1) التوبة 123.

والعلمُ للعملِ تَركِ العَاجِـلِ لأَجْلِ تحصيلِ لأَمْرِ الآجِـلِ
وطلَبُ العِلم على قسميْـنِ طلَبُ عِلمِ الحالِ فرضُ عَيْنِ
فلْيَدْرِ مَرْءٌ حُكْمَ ما يَقَعُ لَهْ من العبادةِ ومِـن مُعَامَلَـهْ

الفقه نور يضعه الله في القلب. وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول : الفقيه من انفقأ الحجاب عن عين قلبه، فمن فقه عن الله سر الإيجاد، وأنّه ما أوجده إلا لطاعته، وما خلقه إلا لخدمته.. كان هذا الفقه منه سببا لزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة، وإهماله لحظوظ نفسه، واشتغاله بحقوق سيده، مفكرا في المعاد، قائما بالاستعداد. «و» قد قال أبو حنيفة : إنما **«العلم للعمل»** به أي **«ترك العاجل»** أي الدنيا والاشتغال بأمورها **«لأجل تحصيل لأمر الآجل»** الآخرة أي الجنة وما فيها من الدرجات؛ إذ لا يمكن تحصيلهما معا؛ لأنهما ضدان، والآخرة أبدية باقية، فيلزم ترك الفاني لأجل الباقي، فينبغي للإنسان أن لا يغفل عن نفسه وما ينفعها فيستجلبه، وما يضرها فيجتنبه؛ كي لا يكون عقله وعلمه حجة عليه. قال الشاطبي في موافقاته : كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة للتعبد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى فبالتبع، والقصد الثاني لا بالقصد الأول، انظر أدلة ذلك فيها.وقال فيها أيضا : قال مالك : الحكمة والعلم نور يهدي به الله من يشاء، وليس بكثرة المسائل، ولكن عليه علامة ظاهرة وهو التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، وذلك عبارة عن العمل بالعلم من غير مخالفة. **«وطلب العلم على قسمين»** : عين وكفاية، فأما **«طلب علم الحال»** أي الأمر العارض للإنسان من صلاة وزكاة وصوم وغيرها فهو **«فرض عين»** فهو ما يتعلق بالإنسان في نفسه كالكافر، فإنه مطلوب بالإسلام فرض عين، فيجب عليه تعلم صورته ومبانيه، ثم إذا حان الوقت وجب عليه تعلم الطهارة وسائر شروط الصلاة وفرائضها، وهكذا كما قال : **«فليدر مرء»** مسلم **«حكم ما يقع له»** ويتعلق به **«من العبادة»** فيجب عليه علمها بقدر ما يؤدي به الواجب؛ لأن ما يتوسل به إلى إقامة الفرض يكون فرضا **«ومن معامله»** فإن أراد شراء طعام مثلا وجب عليه تعلم أحكام البيع والشراء، وإن أراد تزوجا وجب عليه تعلم أحكام النكاح، وهكذا، فليس فرض العين مخصوصا

مَعْرِفَةُ النفسِ لِمَا لَهَا وَمَـا هُوَ عليها حَدُّ فِقْهٍ رُسِمَـا
لَدَى الإِمَامِ الحَنَفِيِّ الشَّهْمِ أو هُوَ عِرْفَانُ دَقِيقِ العِلْـمِ

هي به، ومعناه أنه صفة ينكشف بها لمن قامت به ما من شأنه أن يذكر ــ انكشافا تاماً، لا اشتباه فيه. انظر شرح الإحياء ففيه خمسة عشر تعريفا للعلم. **«معرفة النفس لما لَها»** من الخير **«وما هو عليها»** سواء كان من الاعتقاديات أو الوجدانيات أو العمليات، فدخل في الاعتقاديات علم الكلام، وفي الوجدانيات علم الأخلاق والتصوف كالزهد والصبر والرضا وحضور القلب في الصلاة ونحو ذلك، وفي العمليات الصلاة والزكاة والصوم والبيع ونحوها كما في شرح الإحياء. **«حد فقه رسما»** أي حُدَّ بذلك **«لدى الإمام الحنفي الشهم»** : الذكي الفؤاد المتوقد. شهم ككرُم. وهذا المعنى أعم من الفقه الذي يعرف به أحوال المكلفين. قال في الإحياء : ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله عز وجل : ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ﴾ الآية[1] وما يحصل به التخويف والإنذار هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف؛ بل التجرد له على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه، كما يشاهد من المتجردين له. **«أو هو»** أي الفقه حده **«عرفان دقيق العلم»** أي غامضه. اليوسي : لاشك أن أعلى العلوم وأجلها ما يستثمر منه بإذن الله تعالى معرفة الله تعالى وما له من جمال وجلال ومعرفة أفعاله، وحكمته في أرضه وسمائه وملكه وملكوته، ومعرفة أحكامه، وذلك كله مضمون علم الشريعة، الظاهر منها والباطن، وهو الفقه في الدين، وهو الحكمة، وإن شئت قلت : معرفة ما للنفس وما عليها، وإن شئت قلت : معرفة الله وما له ومعرفة النفس وما عليها، وأحدهما يغني عن الآخر؛ لأن ما على النفس هو ما لله تعالى. قال في التنوير : فالفقيه من فهم سرّ الإيجاد فعمل له، وهذا هو الفقه الحقيقي الذي من أعطيه فقد أعطي المنة العظمى، وفي هذا قال مالك رضي الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية وإنما

---

(1) التوبة 123.

والعلمُ للعملِ تَركِ العَاجِـلِ لأَجْلِ تحصيلٍ لأَمْرِ الآجِـلِ
وطـلَبُ العِلـم على قسميْـنِ طلَبُ عِلمِ الحالِ فرضُ عَيْنِ
فلْيَدْرِ مَرْءٌ حُكْمَ ما يَقَعُ لَهْ مـن العبـادةِ ومِـن مُعَامَلَـهْ

الفقه نور يضعه الله في القلب. وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول : الفقيه من انفقأ الحجاب عن عين قلبه، فمن فقه عن الله سر الإيجاد، وأنّه ما أوجده إلا لطاعته، وما خلقه إلا لخدمته.. كان هذا الفقه منه سببا لزهده في الدنيا وإقباله على الآخرة، وإهماله لحظوظ نفسه، واشتغاله بحقوق سيده، مفكرا في المعاد، قائما بالاستعداد. **«و»** قد قال أبو حنيفة : إنما **«العلم للعمل»** به أي **«ترك العاجل»** أي الدنيا والاشتغال بأمورها **«لأجل تحصيل لأمر الآجل»** الآخرة أي الجنة وما فيها من الدرجات؛ إذ لا يمكن تحصيلهما معا؛ لأنهما ضدان، والآخرة أبدية باقية، فيلزم ترك الفاني لأجل الباقي، فينبغي للإنسان أن لا يغفل عن نفسه وما ينفعها فيستجلبه، وما يضرها فيجتنبه؛ كي لا يكون عقله وعلمه حجة عليه. قال الشاطبي في موافقاته : كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون من حيث هو وسيلة للتعبد به لله تعالى، لا من جهة أخرى، فإن ظهر فيه اعتبار جهة أخرى فبالتبع، والقصد الثاني لا بالقصد الأول، انظر أدلة ذلك فيها.وقال فيها أيضا : قال مالك : الحكمة والعلم نور يهدي به الله من يشاء، وليس بكثرة المسائل، ولكن عليه علامة ظاهرة وهو التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، وذلك عبارة عن العمل بالعلم من غير مخالفة. **«وطلب العلم على قسمين»** : عين وكفاية، فأما **«طلب علم الحال»** أي الأمر العارض للإنسان من صلاة وزكاة وصوم وغيرها فهو **«فرض عين»** فهو ما يتعلق بالإنسان في نفسه كالكافر، فإنه مطلوب بالإسلام فرض عين، فيجب عليه تعلم صورته ومبانيه، ثم إذا حان الوقت وجب عليه تعلم الطهارة وسائر شروط الصلاة وفرائضها، وهكذا كما قال : **«فليدر مرء»** مسلم **«حكم ما يقع له»** ويتعلق به **«من العبادة»** فيجب عليه علمها بقدر ما يؤدي به الواجب؛ لأن ما يتوسل به إلى إقامة الفرض يكون فرضا **«ومن معامله»** فإن أراد شراء طعام مثلا وجب عليه تعلم أحكام البيع والشراء، وإن أراد تزوجا وجب عليه تعلم أحكام النكاح، وهكذا، فليس فرض العين مخصوصا

وواقعٌ في البعضِ مِنْ أَحْيانِ   فَهْوَ الكِفائيُّ لا على الأَعْيَانِ

بالعبادات، ولا بباب من أبواب الفقه، وعلى هذا يحمل قوله عليه السلام : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[2] عند كثير من الأئمة. ثم إنه يجب على المكلف تحصيل فرض العين من علم الشرع قبل الاحتياج إليه، وقال الشافعي : لا يجب إلا عند الاحتياج إليه. كما في عدوي الرسالة. «و» أما «واقع في البعض من أحيان» أي الأوقات كصلاة جنازة وعيادة مريض ونحوهما «فهو الكفائيُّ» بتخفيف ياء النسب، وهو لغة، لا ضرورة. «لا على الأعيان» فإذا قام به بعض سقط عن الباقي. كنون : من العلوم ما تجب معرفته عينا كعلم المعتقدات، وكمعرفة أحكام العبادات العينية، وكحكم المعاملات كالنكاح والبيع والإجارة والشركة والقراض لمن يتعاطى ذلك؛ للإجماع على أنه لا يحل لامرىء مسلم أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه، لكن يكفي في غير العبادات تعلم الحكم بوجه إجمالي يبرئه من أصل الجهل بالحكم بقدر وسعه، وكعلم أمراض القلوب وعلاجها كالكبر والعجب والحقد والحسد وحب الحمد بما لم يفعل، وعلى هذا القسم حمل حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم)، ومنها ما تجب معرفته كفاية، وهي إما مقاصد كحفظ القرآن والتفسير والحديث والفقه والكلام والتصوف على رأي فيهما، وإما وسائل، فمنها ما يتعلق بالقرآن وهو علم القراءات وعلم التجويد، ومنها ما يتعلق بالحديث وهو علم أقسامه ومراتبه وعلم أحوال الرواة وطبقاتهم وأعمارهم وعدالتهم وجرحهم، ومنها ما يرجع إلى الاستنباط منهما وهو علم أصول الفقه، ومنها ما يتعلق بهما وبغيرهما من كلام العرب وهو اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان، ومنها ما فيه منفعة عامّة وهو الحساب والتوقيت والمنطق ــ على رأي ــ، ومنها ما معرفته مستحسنة فقط كعلم الكتابة والطب وما يحتاج إليه من النجوم، وكعويص الفرائض، والدقيق في العربية والتصريف، ومعرفة شواذّ اللغة وعلم العروض والقوافي. انتهى منه.

وما ذكر من استحسان الطب ذكره أيضا الشيخ الطيب، لكن قال محشّيه : الظاهر أنه من فروض الكفاية. وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

(2) رواه الطبراني.

لاكنْ إذَا البعضُ بهِ لم يَقُمِ في بَلْدةٍ كانوا إذاً في مَأْثَمِ

ثم إن الاشتغال بعلم الكفاية — كما قال اليوسي — أفضل من عبادة أخرى قاصرة كصلاة وصوم، وذلك لثلاثة أوجه : الأول : ما ورد من فضل العالم على العابد، الثاني : أن منفعة العبادة القاصرة خاصّة بصاحبها ومنفعة العلم عامّة، الثالث : أن أجر العبادة المذكورة ينقطع بالموت ومن خلف علما ينتفع به بعده فلا ينقطع بالموت، قلت : وهذا مع صحة النية في العلم والإخلاص، وذلك صعب إلا على من وُفّق. انتهى كلامه. قال الشيخ الطيِّب : من ظهرت فيه قابلية ونجابة في طلب العلم الكفائي صار في حقه فرض عين، قاله سحنون، ومال إليه ابن ناجي، وجعله شيخه أبو مهديٍّ المذهبَ؛ قائلا : لا أعرف خلافه، وقول المَحَلِّي : لا يجب الاستمرار في طلبه على من آنس فيه الرشد من نفسه على الأصح مذهبُ الشافعية؛ لأنه منهم. «**لكن إذا البعض به**» أي بذلك الكفائيّ «**لم يقم في بلدةٍ كانوا**» أي أهل تلك البلدة «**إذاً في مأثم**» جميعا، فيجب على الإمام أن يأمرهم بالقيام به ويجبرهم عليه.

وللعلامة جدِّنا : محمد مولود بن أحمد الجواد في نظمه تنقيح القرافي رحمهم الله تعالى :

العلــمُ مــقسومٌ إلى قسميــنِ فـرضِ كفايـةٍ وفـرضِ العَيْــنِ
فالثـانِ عِلـمُ مـا عليـهِ وَجَبَـا إذ مُنِـعَ المَجْهُـولُ أن يُرْتَكَبَـا
فمَـنْ يُـرِدْ تأدِيَـةَ الصلاةِ والحجِّ والصيـامِ والــزكاةِ
فلْيتعلَّـمْ حُكْـمَ مـا أرادَهْ مِن ذي وغيرِها من العبـادَهْ
كالبيْـعِ والصَّرْفِ وغيـرِ ذيْـنِ من كلِّ مـا يقَـعُ بين اثْنَيْـنِ
فليسَ فرضُ العيـنِ في العبـادَهْ مُنحصراً عنـدَ ذَوِي الإفـادَهْ
فطَـلَبُ العلـمِ فـريضةٌ على كلِّ مَن آسْلَمَ عَلَى ذا حُمِلاَ
فعالِمٌ بمُقتَضى العلـمِ عَمِـلْ أطاعَ طاعتيـنِ نِعْـم ما فَعَـلْ
وغيـرُ عالـمٍ وعامـلٍ أتَـى معصيَتَيْـنِ بئسمـا أتى الفَتَـى
وعالـمٌ بعِلمـهِ لم يعْمَـلا معصيـةً وطاعـةً قـد عمِـلا
فالعُلمـا خيـرٌ لـدى الأعـلامِ مِن غيرِهمْ في مثلِ ذا المقامِ

وشَرَفُ العِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ الإِنسانُ بادٍ لَمْ نُطِلْ بِجَلْبِهِ

وقد يَكونُ الجُهلاءُ أفضلاَ كَشَارِبِ الخمر يَراه عَسَلا

كذاكَ من في العِلمِ باعُه اتَّسَعْ فإنَّه أعظمُ ذنباً للتَّبَعْ

أمَّا الكفائيُّ فعلم ما لَهْ تَعَلُّقٌ لأحدٍ بحالَهْ

فواجبٌ في الشرعِ أنْ يَكونا في الدِّينِ منا مُتفقِّهونا

كيما يكونوا قدوةَ الأتباعِ صوناً لشرْعِنا مِن الضَّياعِ

ومنْ يكُن طيِّبةً سَجيَّتُهْ بين الورى واعتَدلتْ سريرَتُهْ

وجاد حقّا حفظُه وحسُنا إدراكُه العلمُ له تعيَّنا

أي تعين للعلم الكفائي. قال مولود رحمه الله تعالى في شرحه : لأن من لا يكون كذلك لا يحصل منه المقصود، إما لتعذره كسيِّء الفهم يتعذر عليه أن يصل لرتبة الاقتداء، أو لسوء الظن به فينفر الناس عنه؛ لخبث سريرته فلا يحصل مقصود الاقتداء.

«وشرف العلم الذي اختص به الانسان باد» لا يخفى على أحد، فما سوى العلم من الخصال يشترك فيه سائر الحيوانات كالشجاعة والقوة، ولكون شرفه ظاهرا **«لم نطل»** النظم **«بجلبه»** ولابأس بإيراد مقدمات ثلاث ها هي :

المقدمة الأولى في فضائل العلم والحث عليه، قال في المقدمات : وطلب العلم إذا أريد به وجه الله تعالى وأخلصت النية فيه لله من أفضل أعمال البر وأجلّ نوافل الخير، قال الله تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3] وقال : ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[4] وقال : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[5] وقال : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

---

(3) المجادلة 11.

(4) الزمر 10.

(5) العنكبوت 43.

ٱلْعُلَمَاءُ﴾(6) وقال : ﴿وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾(7) جاء في التفسير أنه الفقه في دين الله عزّ وجلّ. وقال رسول الله ﷺ : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)(8) وقال : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة)(9) وروي : (إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم؛ رضى بما يصنع)(10) وقال أبو هريرة : (من غدا أو راح إلى المسجد لا يريد غيره؛ ليتعلم خيرا أو يعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله رجع غانما)(11)، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : (ما أعمالُ البر كلها في الجهاد إلا كبصقة في بحر، وما أعمال البر كلها والجهاد في طلب العلم إلا كبصقة في بحر)(12) قال في البيان معناه في الموضع الذي يكون الجهاد فيه فرضا على الكفاية، لا في الموضع الذي يكون متعينا على الأعيان. وروي أن رسول الله ﷺ سئل عن أفضل الأعمال ؟ فقال : (الصلاة لأول ميقاتها)(13) معناه في الفرائض، وأما النوافل فطلب العلم أفضل منها بدليل الحديث الأول. وقد روي عن مالك أن الصلاة أفضل من القعود لمذاكرة العلم، وروي عنه أن العناية بالعلم أفضل من الصلاة، وليس ذلك باختلاف من قوله، ومعناه أن طلب العلم أفضل من الصلاة لمن ترجى إمامته، وأن الصلاة أفضل من طلب العلم لمن لا ترجى إمامته، إذا كان عنده منه ما يلزمه في خاصّة نفسه، من صفة وضوئه وصلاته وصيامه وزكاته — إن كان ممن تجب عليه الزكاة —. وفي البيان أيضا : لا اختلاف في أن نشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر قال الله عز وجل : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ... الآية﴾(14) معناه : يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم درجات؛ لأن من

(6) فاطر 28.
(7) البقرة 268.
(8) متفق عليه.
(9) أخرجه مسلم وأحمد.
(10) رواه أبو داوود والترمذي.
(11) رواه ابن ماجه والطبراني بألفاظ متقاربة.
(12) الإتحـاف.
(13) متفق عليه.
(14) المجادلة 11.

آمن و لم يؤت العلم لا تستوي درجته مع درجة من آمن وأوتي العلم، وإنما رفع الله درجات الذين أوتوا العلم بتعليمهم إياه. وفي الحديث : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الإنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتصُّ آثارهم ويقتدى بأفعالهم وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهَوامُّه، وسباع البر وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار، والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل والعمل تابعه، ويلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء) [رواه ابن عبد البر عن معاذ بن جبل مرفوعا].

قال في شرح خاتمة التصوف : وجمع الشافعي نبذة في فضل العلم قال : ما يتقرب العبد إلى ربِّه بشيء أفضل من طلب العلم. وقال : ما أفلح في العلم إلا من طلبه في القلة، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر عليَّ، ولا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح. وقال : من لا يحب العلم لا خير فيه، فلا تكن بينك وبينه صداقة ولا معرفة. وقال : رتبة العلماء التوفيق للعمل، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس. وقال : زينة العالم الورع والحلم. وقال : من طلب العلم فليدقق؛ لئلا يضيع دقيق العلم. وقال : من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

ولولا العلم ما عُرِف الله عز وجل، ولا ما فرض على عباده، فلا عمل أجل منه، فإن الله تعالى وصف به نَفْسَهُ وتسمّى به، والعلماء هم ورثة الأنبياء، وفي الحديث : (أفضل العبادة الفقه وأفضل الدين الورع) [رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة] وفيه : (لَبَابٌ يتعلمه الرجل أحب إليَّ من ألف ركعة تطوعا) [رواه

الطبراني] انظر في الشرح المذكور بقية أدلة فضل العلم فقد أطال فيها، كما أطال فيها الإحياء وابن عبد البر واليوسي.

قال اليوسي : واعلم أن كل ما يذكر في فضيلة العلم وطلبه إنما يكون تنبيها وترغيبا؛ وإلا ففضل العلم غني عن البيان؛ لأنه كمال الإنسان، وبه يمتاز عن سائر الحيوان.

ومما قيل فيه من الشعر قول علي رضي الله عنه :

الناس من جهة التمثيل أكفاءُ ... أبوهـمُ ءادمٌ والأمُّ حـواءُ
فإن يكن لهمُ في أصلهمْ شرفٌ ... يفاخرون بـه فالطيـنُ والماءُ
ما الفخرِ إلا لأهل العلم إنهُم ... على الهدى لمن استهدى أَدِلاَّء
وقدرُ كلِّ امرىءٍ ما كان يحسنُه ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففُزْ بعلمٍ تعِشْ حيّاً به أبداً ... الناسُ موتى وأهل العلم أحياء

وقول بعضهم :

مع العلم فاسلك حيث ما سلك العلمُ ... وعنه فباحث كلَّ من عنده فهمُ
ففيه جَلاءٌ للقلوب من العمى ... وعونٌ على الدِّين الذي أمرُه حتْمُ
فإني رأيت الجهلَ يُزري بأهلِهِ ... وذُو العلم في الأقوام يرفعُه العلمُ
يُعَدُّ كبيرَ القوم وهو صغيرُهمْ ... وينفذ منهُ فيهم القول والحُكم
وأيُّ رجاء في امرىءٍ شاب رأسُه ... وأفنى سِنيه وهو مستعجم فدْمُ؟!
يروح ويغدو الدهرَ صاحبَ بطنةٍ ... تركَّب في أحضانه اللحمُ والشحم!
إذا سئل المسكينُ عن أمرِ دينه ... بدت رُحَضَاءُ العَيِّ في وجهه تسمو!
وهل أبصرت عيناك أقبحَ منظراً ... من اشيبَ لا علم لديه ولا حلم؟
هي السوءة السوءاء فاحذر شماتها ... فـأولها خـزيٌ وآخرُهـا ذَمُّ
فخالط رواة العلم واصحب خيارهمْ ... فخلطتُهمْ زين وصُحبتهمْ غُنـمُ
ولا تعدونْ عيناك عنْهُمْ فإنهمْ ... نجومٌ إذا ما غاب نجم بدا نجمُ
فوالله لولا العلم ما اتضح الهُدى ... ولا لاح من غيب الأمور لنا رسم

وقال سابق البربري :

والعلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يجلّي سوادَ الظلمة القمـرُ
وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصر

وقول أبي بكر بن مروان :

العلم زينٌ وتشريف لصاحبهِ — أتت إلينا بذا الأنباءُ والكتبُ
والعلم يرفع أقواما بلا حسب — فكيف من كان ذا علم له حسب ؟
فاطلب بعلمك وجه الله محتسبا — فما سوى العلم فهو اللهو واللعب

وقول الآخر :

يعد رفيع القوم من كان عالما — وإن لم يكن في قومه بحسيبِ
وإن حل أرضا عاش فيها بعلمه — وما عالم في بلدة بغريب

وقول الآخر :

لقد ضلت حلومٌ من أناسٍ — يرون العلمَ إفلاساً وشُومَا
كسانا علمُنا فخرا وجوداً — وبالجهل اكتسَوْا عجزا ولُوما
همُ الثيرانُ إن فكَّرتَ فيهم — فكيف بأن ترى ثورا عليما ؟
فجانبهمْ ولا تعتب عليهمْ — وكن للكتب دونهمُ نديما

وقول الجاحظ :

يطيب العيش إذ تلقى حكيماً — غذاه العلم والرأي المصيبُ
فيكشفُ عنك حيرة كلِّ جهلٍ — ففضل العلم يعرفه الأريب
سقام الحرص ليس له دواء — وداء الجهل ليس له طبيب

المقدمة الثانية في آداب العالم في نفسه، وهي أمور، منها — كما قال اليوسي — تقوى الله، ودوام خوفه، ومراقبته في جميع حركاته، وفي سره وعلانيته، ولْيَسْتَشْعِر ما أودعه الله تعالى من أمانته، فيجتهد في حفظها، ويحذر من الخيانة فيها، قال تعالى : ﴿لاَ تَخُونُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَتِكُمْ﴾[15] وقال : ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ ٱللَّهِ... الآية﴾[16] وعن الشافعي رضي الله عنه : ليس العلم ما حفظ، العلم ما نفع.

وفي الجامع الصغير : (سياتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا : مرحبا بوصية رسول الله وافتوهم) أي علموهم. المناوي : وقد درج السلف على

(15) الأنفال 28.

(16) المائدة 46.

قبول وصيته، فكان أبو حنيفة يكثر مجالسة طلبته، ويخصهم بمزيد الإكرام، وصرف العناية في التعظيم. وكان البويطي يدنيهم ويقربهم، ويعرفهم فضل الشافعي وفضل كتبه، ويحضهم على الاشتغال، ويعاملهم بأشرف الأحوال.

قال الشيخ الطيب : قال القلشاني : من أهمّ آداب العلم أن يقصد بتعلمه وتعليمه وجه الله تعالى، وأن يتخلق حامله بالمحاسن التي رغب الشارع فيها من الزهد والخشوع والوقار والتواضع والخضوع لأهل الديانة والعلم، والتنزه عن دنيء الاكتساب والحلم، وطلاقة الوجه وحسن البشر.

وفي المدخل عن القرطبي : ينبغي للعالم أن يأخذ نفسه بالصون عن طرق الشبهات، ويقلل الضحك، والكلام بما لا فائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار، وينبغي له أن يتواضع للفقراء، ويجتنب التكبر والإعجاب، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها إن خاف على نفسه الفتنة. وإن لم يخف خالطهم بالظاهر مع سلامة باطنه؛ ليبلغهم أحكام ربهم عليهم.

ثم قال القرطبي : ويترك الجدل والمراء، ويأخذ نفسه بالرفق والأدب وينبغي له أن يكون ممن يؤمن شره، ويرجى خيره، ويسلم من ضره ولا يسمع ممن نمَّ عنده، ويصاحب من يعاونه على الخير، ويدله على الصدق ومكارم الأخلاق، ويزينه ولا يشينه.

وينبغي أن يكون خائفا على نفسه من التقصير، مشفقا على نفسه في التبليغ، يرى نفسه أنها ليست أهلا لذلك.. ويرى نفسه أنه أذل عبيد الله، وأكثرهم حاجة إليه، وأفقرهم إلى التعلم، كما قيل : العالم عالم ما كان يرى نفسه أنه جاهل، فإذا رأى نفسه أنه عالم فقد جهل، بل مسترشد متعلم.. يقعد مع إخوانه.. يرشدهم ويسترشد منهم.. ويعلمهم ويتعلم منهم... إلى أن قال : ثم إنه محتاج في التعليم لمباشرة غيره.. لابدّ من ذلك؛ إما أن يعلم أو يتعلم، وكلاهما يحتاج فيه إلى مجاهدة عظيمة؛ لأجل خلطة الناس ومباشرتهم، وذلك أمر عسير؛ لأنه يحتاج أن كل من اجتمع به ينفصل وهو طيب النفس، منشرح الصدر، بذلك مضت السنة، وانقرض السلف عليه، وهذا مع مراعاة الأصل الذي هو تخليص الذمة مما يترتب فيها وعليها من حقوق الإخوان في الحضرة والغيبة، والسلامة من أعراضهم، والذب عنهم، وسلامة الصدر لهم، ومراعاة أحوالهم، وإنصافهم في الخلطة، والتوفية لهم

في ذلك كله صعب عسير، فضلا عن مكابدة فهم المسائل والوقوف على معانيها وغامض خباياها آناء اليل وأطراف النهار، مع ما ينزل من النوازل من الأمور التي تقع في زمانه، كما قال صاحب الأنوار رحمه الله تعالى، وقد خص الله تعالى العلماء بفضيلة لا يشاركهم فيها غيرهم؛ لأن الله عز وجل يعبد بفتواهم، ويعرف حلاله وحرامه بهم.. غير أنهم مطالبون بشكر النعمة.. مدافعون لوجود كل فتنة ومحنة وحادثة وبدعة.

وهذا مقام عظيم؛ إذ به يعبد الله تعالى ويطاع، وبه ينهى عن معاصيه وتترك، فكل من ترك معصية أو بدعة ففي صحيفته.. بل وكل من أطاع الله وعبد الله فذلك في صحيفته أيضا. وقد قال ﷺ لعلي بن أبي طالب : (لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم)[17] فكيف تكون صحيفة هذا العالم ؟ وكيف تكون منزلته ؟ وكيف يكون حاله عند الوفود على ربه عند ظهور السرائر والمخبّآت ؟ ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[18].

وذكر في الإحياء وظائف المعلم المرشد، فمنها الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، ومنها أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه، فلا يطلب على إفادة العلم أجرا، ولا يقصد به جزاء ولا شكرا، بل يعلم لوجهه تعالى، وطلبا للتقرب إليه، ولا يرى لنفسه منة عليهم — وإن كانت المنة لازمة عليهم —، بل يرى الفضل لهم؛ إذ هدفوا قلوبهم لأن تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة، فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض، فكيف تقلده منة ؟ وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى، ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب، فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى، كما قال تعالى : ﴿وَيَٰقَوْمِ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً... الآية﴾[19].

ومنها أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا، وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، ثم ينبهه على أن الغرض

---

(17) في الصحيحين وأبي داوود ومسند أحمد بألفاظ متقاربة.

(18) سورة السجدة، الآية 17.

(19) سورة هود، الآية 29.

بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن، فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده، فإن علم من باطنه أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه، فإن كان هو علم الخلاف في الفقه والجدل في الكلام والفتاوي في الخصومات والأحكام فيمنعه من ذلك، فإنّ هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها : تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث، وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة، ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها.

ومنها أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح، وبطريق الرحمة، لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرءة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار؛ إذ قال عليه السلام — وهو معلم كل مرشد — : (لو منع الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما نهينا عنه إلا وفيه شيء)[20] ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه، فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العمل به؛ ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته.

ومنها أنه ينبغي للمتكفل ببعض العلوم أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه كمعلم اللغة؛ إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه؛ إذ عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وأن ذلك نقل محض وسماع، وهو شأن العجائز، ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك فروع، وهو كلام في حيض النسوان، فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن ؟ فينبغي أن تجتنب هذه الأخلاق المذمومة للمعلمين، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره، وإن كان متكفلا بعلوم ينبغي أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة.

ومنها أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره، أو يخبط عليه عقله؛ اقتداءً في ذلك به عليه السلام حيث قال : (نحن معاشر الأنبياء

---

(20) الإتحاف.

أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم)[21] فليَبُثَّ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها، وقال ﷺ : (ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم)[22] وقال علي رضي الله عنه وأشار إلى صدره : إن ههنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة، وصدق رضي الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار.

ومنها أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه، ويوهم إليه البخل به عنه؛ إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق، فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحٰنه في كمال عقله، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله.

ومنها أن يكون المعلم عاملا بعلمه، فلا يكذب قوله فعله؛ لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل لا يدرك إلا بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد، وكل من تناول شيئا وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نُهُوا عنه، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود، فمتى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ... الآية﴾[23] ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل؛ إذ يزل بزلتِه عالَمٌ كثير ويقتدون به، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها، ولذلك قال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه. انتهى منه ببعض اختصار.

---

(21) الإتحاف.

(22) الإتحاف.

(23) البقرة 43.

ثم تكلم على آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء فراجعه لذلك ولابد.

قال في خاتمة التصوف : والعلم أفضل العمل وأُسُّه، إلا أن العمل ثمرته فقليله معه خير من كثيره مع الجهل، والعلم النافع : ما كان تعلمه لله وحده، لا تصيُّدا للدنيا ولا تحيلا لصرف القلوب. قال في شرحها ــ بعد كلام طويل ــ ما نصه : فالحاصل أن التكلم بالعلم لاستمالة النُّفوس طلبا للمنزلة والجاه والشرف عِند الخلق، وتوصلا لما يرشح له منهم من جيفة الدنيا.. بيع للعلم النفيس بأبخس الثمن الخسيس، ويختبر العبد نفسه في قصده بالعلم بأن ينظر فيما يجري على لسانه من العلم والحكمة، فإن كانت نفسه لا تميل إلى خردلة من جاهٍ وشرف وجر منفعة من السامعين له فليفسخ عقدة الصمت عن لسانه، وينطق بالعلم والحكمة؛ لينتفع بها قلوب الخلق، بعدما يكون هو أكثرهم انتفاعا بالعلم وأكثرهم خشوعا، وإن عدم هذا خيف عليه أن يكون من الثلاثة الذين ورد أنهم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة(24)، فمن طلب بالعلم والحكمة لقمة أو رفعة أو منزلة فقد تعرض للسقوط من عين الله، فالأعمى لا يصلح أن يكون دليلا، والطبيب لا يصلح أن يكون عليلا، فالعبد إذا كان بالعلم موصوفا، وكان قلبه إلى الحظ العاجل مصروفا، فقلبه من حب الدنيا معلول، وباب الأسرار عنه مقفول، فكل من مال في الكلام بالعلم إلى وزن خردلة من جاه أو رفعة، أو طلب ذرة من حطام الدنيا فلفظه بالعلم تعرض منه لمقت الله عز وجل وسخطه، فحب الجاه والشرف إذا تفاحش لا يشفي منه العبد إلا العناية والخصوصية. انظر بقيته.

ثم قال : وفي شرح المناوي للحكم : قال بعضهم : ليس لنا علم شرعي إلا وهو يدعو إلى الأدب مع الله تعالى ومع خلقه، فليمتحن طالب العلم نفسه فإن كان كلما ازداد علما ازداد أدبا مع الله تعالى وزهدا فليعلم أن اشتغاله بالعلم على القواعد، وإن كان كلما ازداد علما ازداد حبا للدنيا ومناصبها وحب المأكل والمشرب والملبس والمنكح فليقصر عنه وليكثر من الاستغفار، فإنه على شفا جرف هار.

قال في هدي الأبرار : ومما يعينك على الإخلاص تدبر قوله ﷺ : (من ازداد

(24) متفق عليه.

علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعدا)[25] وقوله ﷺ : (إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه)[26] أو كما قال. نسأل الله السلامة والإخلاص بحرمة سيدنا محمد ﷺ.

النووي : ومن أهم ما يؤمر به المعلم أن لا يتأذى ممن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره، وهذه مصيبة ابتلي بها جهلة المعلمين؛ لغباوتهم وفساد نيتهم، وهو من الدلائل الصريحة على عدم إرادتهم بالتعليم وجه الله تعالى الكريم، وهذا ما لم يكن العالم الآخر فاسقا أو مبتدعا أو كثير الغلط ونحو ذلك، وإلا فليحذر من الاغترار به.

وفي الرهوني عن المقدمات أن من كان أصل عمله لله، وعلى ذلك عقد نيته لا تضره — إن شاء الله تعالى — الخطرات التي تقع بالقلب ولا تملك. وقد سئل مالك — رحمه الله تعالى — وربيعة عن الرجل يحب أن يلقى في طريق المسجد ويكره أن يلقى في طريق السوق ؟ فأما ربيعة فكره ذلك، وأما مالك فقال : أما إذا كان أول ذلك وأصله لله تعالى فلابأس به — إن شاء الله —.

قال الله عز وجل : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[27] وقال : ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾[28] وقال عمر بن الخطاب لابنه : لئن كنت قلتها أحب إلي من كذا وكذا إلى أن قال : فإنما هذا أمر يكون في القلب لا يملك، فهذا إنما يكون من الشيطن ؛ ليمنعه من العمل، فمن وجد ذلك فلا يكسله عن التمادي في فعل الخير، ولا يؤيسه من الأجر، وليدفع الشيطن عن نفسه ما استطاع، ويجدد النية لله، ثم بعد أن ذكر ما يؤيد ما ذهب إليه مالك قال : ويوافق ما تقدم قول ابن العربي : فإن قيل يخاف المحمدة قلنا : لابد أن يحمد الرجل على ما فعل من الخير، وإنما المذموم أن يحب أن يحمد بما لم يفعل. وقد قلت :

مَنْ أَخْلَصَ الْعَمَلَ فِي ٱبْتِدَائِهِ ... لِلَّهِ إِنْ عَرَضَ فِي أَثْنَائِهِ
مَا غَايَرَ الإِخْلاَصَ مِنْ إِعْجَابِ ... وَغَيْرِهِ فَأَكْثَرُ الأَنْجَابِ

---

(25) رواه الديلمي في مسند الفردوس.

(26) البيهقي والطبراني في الصغير وابن عدي.

(27) طه 38.

(28) الشعراء 84.

مِنْ سَلَفٍ عَلَى اَعْتِبَارِ اَلإِبْتِـدَا فَلَيْسَ بِالْعَارِضِ نَسْخُ الْمُبْتَـدَا
وَإِنْ يَكُنْ بَـاعِثُ دِيـنٍ أَقْـوَى مِنْ بَاعِثِ الدُّنْيَا فَخُلْفٌ يُرْوَى
قَضَى الْمُحاسبِي بِإِبْطَالِ الْعَمَـلْ وقـال بالصِّحَّـةِ جُمهـورُ الأُوَلْ
وفهِمُوهَـا مِـن فُـرُوعِ مَـالِكْ وَقَدْ حَكَى كَنُّونُ كُـلَّ ذَلِكْ

وفي مفيد العباد عن جسوس : اعلم أن الاشتغال بالعلم أفضل من البطالة والجهل على كل حال؛ لكثرة مفاسد الجهل على العلم؛ لأن الجاهل لا يطلع على حقائق ما هو متلبس به من المساوي، ولا يعرف ما هو منغمس فيه من الدعاوي، بل يرى المعاصي طاعات، ويغلط باعتقادها مباحات أو قربات، وهذه داهية كبرى، موجبة للهلاك دنيا وأخرى؛ لسدها على من اتصف بها باب التوبة؛ إذ ليس ما أتى به في نظره حوبة، وذلك لمن لم يمارس العلوم ــ سيما علم التصوف ــ وصف لازم، ونعت مرتبط ملازم.

وفي البخاري عن ربيعة أنه قال : لا ينبغي لأحد عنده شيء من العلم أن يضيع نفسه. قال في شرح الخاتمة ــ بعد أن ذكر فيه احتمالات ــ ما نصه : واختار سيدي محمد بن يوسف أن معنى تضييع النفس أن يشتغل به في كل أوقاته فيؤدي ذلك إلى مخالطة الناس فيقسو قلبه، بل يخلو أحيانا لورده ومناجاة ربه، وتفكره فيما ينفعه وما يضره من تلك العلوم حتى يصقل قلبه، فيصدق عليه أنه لم يضيع نفسه. وفي كنون : قال السنوسي : إياك أن تستغرق أوقاتك في التدريس؛ لأن ذلك يقسي القلب بسبب مخالطة الناس.

وفي نور البصر في ذكر شيء من حِكَم مالك أنه سأله رجل عن علم الباطن فغضب وقال : لا يعرفه إلا من عرف الظاهر، فإن عرفه وعمل به فتح له في الباطن ولا يكون ذلك إلا مع فتح القلب وتنويره، وعليك بالدين المحض، وإياك وبنيات الأمور، وعليك بما تعرف واترك ما لا تعرف. وقال : طلب العلم حسن لمن رزق خيره، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه. وقال : ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يضعه الله في القلوب. وقال : شرّ العلم الغريب، وخيره الظاهر الذي رواه الناس. وقال لابن وهب : أدِّ ما سمعت وحسبك، ولا تحمل لأحد على ظهرك؛ فإنه كان يقال : أخسر الناس من باع آخرته بدنياه، واخسر منه من باع آخرته بدنيا غيره. وقال : ينبغي لمن خول

علما وكان يشار له بالأصابع أن يضع التراب على رأسه، ويعاتب نفسه إذا خلا بها، ولا يفرح بالرئاسة فإنه إذا اضطجع في قبره وتوسد التراب ساءه ذلك كله. وقال : إذا سئل الرجل عن مسألة ولم يجب واندفعت عنه فإنما هي بلية صرفها الله عنه. وقال : عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله، ويدعوك إلى الآخرة فعله. وقال : من إذالة العلم أن تنطق به قبل أن تسأل عنه، ومن إذالته أن تجيب كل من سألك، ولا يكون إماما من حدث بكل ما سمع.

وقال : إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله. ونظمه بعضهم فقال :

ومن كان يهوى أن يُرى متصدرا ويكره لا أدري أصيبت مقاتلُهْ

وقال له رجل : أوصني، فقال : إذا هممت بأمر من طاعة الله فلا تحبسه فواقا حتى تمضيه، فإنك لا تأمن من الأحداث، وإن هممت بغير ذلك فإن استطعت أن لا تمضيه ــ ولو فواقا فافعل ــ فلعل الله يحدث لك تركه، ولا تستحي إذا دعيت لأمر غير حق أن تعمل الحق، واقرأ : ﴿وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ﴾(29) وطهر ثيابك ونقها من معاصي الله، وعليك بمعالي الأمور وكبرائها، واتق رذائلها وسفسافها، فإن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها، وأكثر تلاوة القرآن، واجتهد في الخير، واذهب حيث شئت.

المقدمة الثالثة في آداب العالم في التدريس. اليوسي : ينبغي للمدرس أمور : منها إذا خرج لمجلسه يتطهر من الحدث والخبث، ويتنظف ويلبس أحسن ثيابه، مما يليق نوعه بمثله في زمانه وبلده؛ قاصدا بذلك تعظيم العلم وتبجيل الشريعة لا رياء ولا فخرا ولا سرفا، ويختلف الحال باليسار والوقت، ولابد أن يختلف أيضا بالقصد والحال، فمن الناس من يغلب عليه حال المعرفة والعلم فينبسط، ومن يغلب عليه حال الخوف والورع فينقبض ويتقشف، والكل على هدى من الله. ثم يركع ركعتي الاستخارة ــ إن كان وقت ركوع ــ؛ طالبا اختيار الله تعالى فيما يريد، فإن نشر العلم ــ وإن كان قربة في الجملة ــ فقد يعرض له ما يكون به مكروها أو محرما، ثم لو كان مطلوبا فقد يكون شيء آخر أهم منه وأوكد وأولى بالتقديم، فلابد من النظر في هذا كله، والاستعانة بالاستخارة؛ لئلا

(29) الأحزاب 53.

يقع في محذور وهو يظن أنه في مأمور، ويستحضر نية صالحة في بث العلم وبيان فوائده، وتبليغ أحكام الله تعالى إلى عباده، والإعانة على الدين، وتنمية غرس العلم، وحياطته عن شبهات الضالين، وتخليط الجاهلين، ونحو هذا من المقاصد الحسنة. ويستعيذ بالله من النية الفاسدة والمقاصد الخسيسة.

ومنها إذا خرج من بيته أن يقول : باسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، باسم الله على نفسي وديني ومالي، اللهم رضني بقضائك وبارك لي فيما قدر لي حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت. ويقول : اللهم إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَل أو أَزِل أو أُزل أو أَذل أو أُذل أو أَظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل عليّ عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك وغير ذا مِمّا ورد عند الخروج، وليقل اللهم ثبت جناني وأدر الحق على لساني، ونحو ذا من دعاء لائق به، ثم لايزال ذاكراً لله تعالى وداعيا ومتعوذا إلى أن يصل إلى مجلسه، فإن كان في مسجد حيَّاهُ بتحيته، وإلا فالركوع حسن — إن كان الوقت — ثم سلم على الحاضرين، وجلس مستقبلا — إن أمكن — بسكينة وتواضع ووقار، متربعا أو كجلسة التشهد أو نحو ذلك مما يمكن، ولا يمد رجليه ولا إحداهما من غير عذر، ولا يرفع إحداهما على الأخرى، ولا يتكيء على يده، ولا يكون على حالة تؤذن بالاستخفاف بالجلساء أو خفة وطيش كالعبث باللحية أو إدارة الخاتم، أو فرقعة الأصابع وتشبيكها، وكثرة الضحك والالتفات والمزاح، أو تشغل الفكر كالجوع الشديد والعطش والهم والنصب والنوم والقلق والبرد والحر المولمين ونحو ذلك.

ومنها أن يبرز للناس؛ لينتفع القوي والضعيف والكبير والصغير؛ فإن العلم — كما جاء في الأثر — لن يهلك حتى يكون سرا، غير أن هذا الأمر يختلف باختلاف العلوم، فرب علم يصلح للعامة كظواهر الشرع وما في معناها من المواعظ والتنبيهات والحكم، ولابد أن يتخذ له المجلس العام، ويكون العالم فيه بارزا؛ لينتفع به الراوي عرضا واستملاء واستماعا، والمستفتي والسائل على الإطلاق، وعلم آخر إنما هو للخاصة كدقائق التصوف وعلم الكتاب وسائر العلوم العقلية فلابد أن يجعل لأربابه خاصة حيث يصلح بهم، ولا يتأذون بغيرهم، ولا يتأذى بهم.

ومنها أن يكرم المتعلمين عليه، وينزلهم منازلهم في السن والشرف والنجابة، مع التلطف بالجميع، وخفض جناح الرحمة عليهم، ويلتفت إليهم ويواجههم، ولا يخص بمواجهته أحدا بحيث ينكسر قلب غيره، اللهم إلا من سأل أو قرأ شيئا أو خاطبه خاصة في أمر فيواجهه بقدر الحاجة، ومن سأله استمع منه، رفيعا أو وضيعا، اللهم إلا أن يستحق تعنيفا؛ لتعنت أو نحوه.

ومنها أن يفتتح بقراءة شيء من القرآن تبركا وتيمنا ولم تجر بذلك العادة في البلاد المغربية في الفنون، ويدعو الله لنفسه وللحاضرين وسائر المسلمين، ولابد أن يسمي الله تعالى بعد التعوذ به من الشيطان الرجيم، ويحمد الله تعالى ويصلي على نبيه ﷺ، ويترضى عن أئمة المسلمين ومشائخه، ويدعو للجميع وللواقف — إن كان في مدرسة — جزاء على فعله.

ومنها أن يرفع صوته بقدر استماع السامعين، ولا يزيد ولا يقصر، ويترسل في كلامه مقتصدا من غير عجلة ولا طيش، ولا سرعة تخل، ولا بطء يمل، ويفصل كلامه، ويقف ويعيد عند الحاجة، ويراعي في العبارة حال الحاضرين، فإن المبتدىء يخل به الإيجاز، والمنتهي يضجره الإطناب وكثرة التكرار.

ومنها أن يصون مجلسه عن اللغط لغير حاجة، وعن الهوس واللدد، ويزجر من اشتغل بذلك، وكل من لا ينصف ولا يهتم بالاستفادة والرشد، أو يقع له ما لا ينبغي في المجلس كالنوم والتحدث والضحك والاستهزاء بالناس، وغير ذلك مما يقع في النظر والجلوس والزي والتقدم والتأخر، وكذا كل ما يخل بالتعلم.

ومنها أن يلازم هو الإنصاف، ويتبع الحق واستماعهُ من كلِّ أحد — وإن دنيّاً — وقول لا أدري في محله، وقد قيل : جنة العالم لاأدري، فإن أخطأه أصيبت مقاتله. وقالوا : ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري؛ لكثرة ما يقوله، ويعلم أن ذلك لا يضع من قدره، فإن الإحاطة متعذرة، ولابد من أشياء تكون مجهولة، وهو محل لا أدري ومن طمع في الإحاطة فهو جاهل، ومن تقدم بما ليس له به علم فهو كذاب.

ومنها إن تعددت الدروس أن يرتب، فيقدم الأشرف والأهم، فيبدأ بتفسير القرآن، ثم بالحديث، ثم بأصول الدين، ثم بأصول الفقه، ثم بالمذهب ثم بالخلاف أو النحو أو الجدل أو غير ذلك.

ومنها أن لا ينتصب لهذا الأمر حتى يكون أهلا له، محققا للفن الذي يريد الخوض فيه، مع ذكاء النفس وحصافة الرأي، قال تعالى : ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾(30) وقال ﷺ : (المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور)(31) وقال الشبلي رضي الله عنه : من تصدر قبل أوانه، فقد تصدى لهوانه. وقال أبو حنيفة : من طلب الرئاسة في غير حينه لم يزل في ذل ما بقي. وقال قائلهم :

تصدر للتدريس كل مهوس ... بليد تسمى بالفقيه المدرس
فحق لأهل العلم أن يتمثلوا ... ببيت قديم شاع في كل مجلس
لقد هزلت حتى بدا من هزالها ... كلاها وحتى سامها كل مفلس

انتهى ببعض اختصار. وقد قلت :

تَصْحِيحُكَ الْمَتْنَ وَحَلُّ الْمُشْكِلِ ... قِيلَ بِذَاكَ حدُّ الإِقْرَاءِ جَلِي
وَمَا عَلَى نَقْصٍ وَحَشْوٍ نَبَّهَا ... يَدْخُلُ فِي ٱلتَّصْحِيحِ عِنْدَ النُّبَهَا
وَحَلُّ مُشْكِلٍ يَكُونُ فِيهِ ... تَوْجِيهُ مَا ٱحْتَاجَ إِلَى ٱلتَّوْجِيهِ
وَفِي الَّذِي زَادَ عَلَى ذَاكَ الضَّرَرْ ... بِطَالِبٍ أَكْثَرُ مِنْ نَفْعٍ ذَكَرْ
ذَا الْيُوسِ ثُمَّ قَالَ وَالتَّحْقِيقُ ... كُلٌّ يُعَامَلُ بِمَا يَلِيقُ
وَحَيْثُ لَمْ يَكُ الْمُدَرِّسُ بِطَبْ ... رَبَا الَّذِي أَتَى عَلَى ٱلَّذِي رَأَبْ

وذكر صاحب المدخل كيفية شروع العالم في التدريس فقال : يفتتح الإقراء فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ليكفي شره في مجلسه، ثم يسمي الله تعالى؛ ليعتزله الشيطان؛ لأن كل شيء سمي الله تعالى في أوله لم يحضره الشيطان، ثم يصلي على النبي ﷺ؛ لتحصل البركة في مجلسه، ثم يترضى على الصحابة؛ لأنهم الذين نقلوا ما جلس إليه، ثم يتبرأ من حوله وقوته بقوله : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثلاثا، ولو قالها سبعا لحسن، ثم قال : وينبغي له إذا أخذ يتكلم في الدرس فأوردت عليه المسائل والاعتراضات والتنظيرات أن لا يجيب أحدا عن مسألته، وليمض فيما هو بسبيله، ويسكت من أورد عليه برفق أو يأمر من يسكته؛ لأن الإيراد إذ ذاك يخلط المجلس ولا يحصل بسببه كبير فائدة.

---

(30) الإسراء 36.

(31) متفق عليه.

وعلى المعلم أن يتفقد أحوال من يتعلم منه، فلا يبذل علمه إلا لمن يتوسم فيه الخير والصلاح إذ بذلك تستقيم له النيات والمقاصد، ولا يبذله لسوى هذا ممن علم حاله أو جهله، وفي قوله تعالى : ﴿وَلاَ تُوتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾[32]... تنبيهٌ على أن حفظ العلم ممن يفسده ويستضر به أولى، كما قيل :

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وقد حكي عن بعض الأمم السالفة أنهم كانوا يختبرون المتعلم مدة في أخلاقه، فإن وجدوا فيه خلقا رديا منعوه التعلم أشد المنع وقالوا : إنه يستعين بالعلم على مقتضى الخلق الردي، فيصير العلم ءالَة شرٍّ في حقه.

وقالت الحكماء : زيادة العلم في الرجل السوء كزيادة الماء في أصول الحنظل كلما ازداد ريّاً ازداد مرارة. انظر شرح الخاتمة ومفيد العباد. ثم ذكر المفيد عن الفاكهاني أنه ينبغي للعالم أن لا يمتنع من تعليم أحد؛ لكونه غير صحيح النية، فإنه يرجى به حسن النية، وربما عسر في كثير من المبتدئين الاشتغال بتصحيح النية؛ لضعف نفوسهم، وقلة أنسهم بموجبات تصحيح النية، فالامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من العلم، مع أن العلم يرجى ببركته تصحيحها إذا أنس بالعلم، وقد قالوا : طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله. ومعناه أنه كان عاقبته أنه صار لله. انظر بقية كلامه.

وللسيوطي في الدرر :

ومن أتى حدّث ولو لم تَنْصَلِحْ نيته فإنها سوف تَصِحْ
فقد روينا عن كبار جلّهْ أبى علينا العلم إلا لِلّهْ

وفي هدى الأبرار : من الناس من لا يعلم أحدا حتى يغلب على ظنه أنه يعمل به، ومنهم من يكتفي بستر الحال؛ تحسينا للظن بعباد الله، وأما من تحقق أن مقاصده بالعلم فاسدة فيحرم بالاتفاق تعليمه، ومعلمه كبائع سيف من قاطع الطريق.

ولنختم هذه المقدمات بمنظومة للؤلؤي أو للمامون، قال ابن عبد البر أنها أحسن ما رأى في آداب التعلم والتفقه من النظم وهي :

واعلم بأن العلم بالتعلمِ والحفظِ والإتقانِ والتفهمِ

(32) النساء 05.

والعلمُ قد يرزقه الصغيرُ   في سنّه ويحرمُ الكبيرُ
وإنما المرءُ بأصغريْه   ليس برجليه ولا يديه
لسانُه وقلبُه المركبُ   في صدره وذاك خَلقٌ عجبُ
والعلم بالفهم وبالمذاكرهْ   والدرس والفِكرة والمناظرهْ
فربَّ إنسانٍ ينالُ الحفظا   ويوردُ النص ويَحكِي اللفظا
وماله في غيرِهِ نصيبُ   مما حواه العالمُ الأديبُ
وربَّ ذِي حرصٍ شديدِ الحبِّ   للعلم والذكر بليدِ القلبِ
معجز في الحفظ والروايهْ   ليست له عما روى حكايهْ
وآخر يعطى بلا اجتهادِ   حفظا لما قد جاء في الإسنادِ
يهزه بالقلبِ لا بناظرِهْ   ليس بمضطر إلى قماطِرِهْ
فالتمس العلمَ وأجمل في الطلبْ   والعلمُ لا يحسنُ إلا بالأدبْ
والأدَبُ النافعُ حُسنُ السَّمْتِ   وفي كثير القول بعضُ المَقْتِ
فكن لحسن السمت ما حييتَا   مقارفا تحمدُهُ ما بقِيتَا
وإن بدتْ بينَ أُناسٍ مسئلهْ   معروفةٌ في العلم أو مُفتعَلهْ
فلا تكن إلى الجواب سابقا   حتى ترَى غيرَك فيها ناطقا
فكم رأيت من عجول سابقِ   من غير فهم بالخطاء ناطقِ
أزرى به ذلك في المجالسِ   عند ذوي الألباب والتنافسِ
والصمت فاعلم بك حقا أَزْيَنُ   إن لم يكن عندك علمٌ متقنُ
وقل إذا أعياك ذاك الأمرُ   ما لي بما تسأل عنه خُبرُ
فذاك شطرُ العلم عند العُلما   كذاك مازالت تقولُ الحُكَما
إياك والعُجبَ بفضل رأيِكا   واحذَرْ جواب القولِ من خَطائِكا
كَمْ من جواب أعقبَ الندامَهْ   فاغتنم الصمت مع السلامَهْ
العلمُ بحرٌ منتهاه يبعُدُ   ليس له حدٌّ إليه يقصد
وليس كل العلم قد حويتَه   أجَلْ ولا العشرُ ولو أحصيتَهُ
وما بقي عليك منه أكثرُ   مما علمتَ والجوادُ يعثرُ
فكن لما سمعته مستفهما   إن أنت لا تفهم منه الكلما
القول قولان فقول تعقلُه   وآخَرٌ تسمعه فتجهلُه
وكل قول فله جوابُ   يجمعه الباطلُ والصوابُ

فصل في النية في حال التعلم

لَابُدَّ لِلطَّالِبِ فِي زَمَانِ تَعَلُّمٍ مِنْ مَقْصَدٍ مُزْدَانِ

وللكلام أولٌ وآخِرُ فافهمهُما والذهنُ منك حاضرُ
لا تدفع القول ولا تردَّهُ حتى يؤديك إلى ما بعدَهُ
فربما أعيا ذوي الفضائلِ جواب ما يلقى من المسائلِ
فيمسكوا بالصمت عن جوابهِ عند اعتراض الشك في صوابِهِ
ولو يكون القولُ في القياسِ من فضة بيضاءَ عند الناسِ
إذاً لكان الصمت من خير الذهبْ فافهم هداك الله آدابَ الطلبْ

«فصل في النية في حال التعلم. لابد للطالب» للعلم **«في زمان تعلم من مقصد مزدان»** أي من نية حسنة، ولابد أن يجتهد في تطهير باطنه من كل غل وغش وحسد وكبر، وكل دنس مذموم، وكل عقيدة فاسدة، فإن وعاء العلم هو قلبه، فلابد أن ينظفه، وبذلك يزكو العلم، وتنمو عليه ثمراته الصالحة، وبذلك يكون صلاح الأمر، كما في الحديث (إن في الجسد مضغة... إلخ)[33] قاله اليوسي. قال النووي في التبيان : وقد أحسن القائل بقوله : يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة.

كنون : قال في العهود : يجب على كل طالب علم أن يتخذ له شيخا يعلمه طريق الوصول إلى حضرة الإخلاص، من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ثم ذكر آية : ﴿وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ... الآية﴾[34] وأحاديث منها حديث : (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما ابتغي به وجه الله تعالى)[35] وحديث : (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما ابتغي به وجه الله تعالى)[36]

---

(33) متفق عليه.

(34) البينة 05.

(35) إتحاف.

(36) إتحاف.

فَنِيَّةٌ فِي كُـلِّ حَـالٍ يَاتِـي أَصْلٌ إِذِ «آلأَعْمَالُ بِآلنِّيَّـاتِ»
فَبِطِلاَبِ الْعِلْمِ يَنْوِي الدَّارِي نَيْلَ رِضَى اللّٰهِ وَتِلْكَ الدَّارِ
إِحْيَـاءَهُ لِلدِّيــنِ وَالإِزَالَـــهْ عَنْ نَـفْسِهِ والْغَيْـرِ لِلْجَهَالَـهْ
إِبْقَاءَ الإِسْلاَمِ فَبِآلْعِلْمِ بَقِـي عِنْدَ ذَوِي السَّبْقِ حُمَاةِ السَّبَقِ

وحديث : (أخلص دينك يكفك العمل القليل)[37] إلى أن قال : وجميع ما ورد في حق العلم والعمل إنما هو في حق المخلصين، فإياك يا أخي والغلط، فإن الناقد بصير. ثم قال : وأقل مراتب الإخلاص أن يصير طالب العلم يحب رفعة جميع أقرانه عليه في العلم والعمل، ويفرح بنسبتهم له إلى الجهل وعدم الفهم، وإذا حضر في محفل وهو يعلم ما لم يعلموه لم يتكلم به في ذلك المحفل؛ خوفا أن يعلوهم ولا يعد نفسه أنه من أهل العلم قط في ساعة من ليل أو نهار، وهذا من أقل درجات المخلصين في العلم. **«فنية في كل حال ياتي»** ــ مقصودا بالذات كان أم لا ــ **«أصل»** فهي أساس الأمر، وعليها يكون العمل **«إذ»** قال عليه السلام : (إنما **«الأعمال»** ــ أي صحتها أو حكمها من ثواب وجزاء ــ **«بالنيات»** وإنما لكل امرىءٍ ما نوى). ثم بيَّن كيفية النية بقوله : **«فبطلاب العلم ينوي الداري»** أي العارف بما ينبغي أن يُنوى **«نيل رضى الله»** تعالى **«وتلك الدار»** الآخرة أي دخول الجنة، وينوي أيضا **«إحياءه للدين والإزاله عن نفسه»** بتعلمه **«و»** عن **«الغير»** بتعليمه إياه **«للجهاله»** صلة الإزاله. وينوي به **«إبقاء الاسلام فبالعلم بقي عند ذوي السبق»** أي التقدم في العلم **«حماة السبق»** ما يجعل من المال رهنا على المسابقة. قال في النشر الطيب : والدال على صحة النية أن يقدر نزول الموت به، فإن سره أن يكون مشتغلا به إذذاك فهو على صواب، وإلا فلا، ويجتهد في إصلاح نيته، ولا يترك طلب العلم لأجل فسادها.

قال في سنن المهتدين : لا يؤيسك من طلب العلم قول تاج الدين ومثله في الإحياء : العلم إن لم تقارنه خشية كان على قارئه نقمة فقط، ما هو هكذا فإنه من تخليط البدايات بالنهايات، وهو إلى الضلال أقرب، فأقول : إن قارنته خشية

---

(37) أخرجه الحاكم في المستدرك.

وَلاَ يَصِحُّ الزُّهْدُ والتَّقْوَى مَعَا جَهْلٍ وَبَعْضُهُمْ أَرَى وَأَسْمَعَا
أَنَّ فَسَادَ عَالِمٍ تَهَتُّكَا أَكْبَرُ مِنْهُ جَاهِلٌ تَنَسُّكَا

فلك وإلا فعليك هذا بالنسبة للسابقين، وأما غيرهم من مقتصد وظالم لنفسه إذا لم تكن فيه جرحة فالعلم له رحمة، وإن لم تدركه خشية لا يستوي العالم والجاهل. **«ولا يصح الزهد»** في الدنيا **«والتقوى معا جهل»** فالعلم إنما شرف لكونه وسيلة التقوى، وهي في عرف الشرع عبارة عن كمال التوقي عما يضر في الآخرة. وعن عمر بن عبد العزيز : ترك ما حرم الله تعالى وأداء ما فرض. وعن بعض المتقي من يترك ما لابأس به؛ حذرا مما فيه بأس. وعن بعضهم بين يدي التقوى خمس عقبات لا ينالها من لا يجاوزهن : إيثار الشدة على النعمة، وإيثار الضعف على القوة، وإيثار الذل على العزة، وإيثار الجهد على الراحة، وإيثار الموت على الحياة.

وقد نظمت درجاتها بقولي :

ابْنُ جُزَيٍّ ذُو الْمَقَالِ الأَقْوَى يَقُولُ خَمْسٌ دَرَجَاتُ التَّقْوَى
مَقَامُ الاسْلاَمِ لِتَقْوَى الْكُفْرِ مَقَامُ تَوْبَةٍ لِتَرْكِ الْحَظْرِ
ثُمَّ مَقَامُ وَرَعٍ تَقْوَى الشُّبَهْ تَقْوَى الْمُبَاحَاتِ لِزُهْدٍ مَرْتَبَهْ
تَقْوَى خُطُورِ مَا سِوَى اللَّهِ عَلَى قَلْبٍ مَقَامٌ لِلشُّهُودِ قَدْ عَلاَ

قال في نور البصر : ولعل المراد بخطور غير الله اشتغال قلبه بغير الله، لا مجرد الخطور بلا اشتغال به.

«وبعضهم» أي العلماء أنشد شعرا فيه **«أرى وأسمعا أن فساد عالم تهتكا أكبر منه جاهل تنسكا»** أي تعبد، قال :

فسادٌ كبيرٌ عالمٌ متهتكٌ وأكبرُ منه جاهلٌ متنسكُ
هما فتنة في العالمين عظيمةٌ لمن بهما في دينه يتمسكُ

فالعالم المتهتك هو الذي يفعل خلاف الشرع من الأفعال الرديئة ولا يبالي أن يفتضح، وفساد مثله كبير؛ لأنه يراه الجهال فيغترون به فيضل ويُضلهم. والجاهل المتنسك هو المقلد في معتقده، والجاهل في أفعاله وأقواله، لا يعرف صحتها وفسادها، وإنما كان فساده أكبر من العالم المتهتك؛ لأن فساده قد يكون في العمل والاعتقاد معا، والعالم اعتقاده صحيح.

كَذَاكَ فَلْيَنْوِ بِهِ شُكْرَ الْمِنَنْ مِنْ نِعْمَةِ الْعَقْلِ وَصِحَّةِ الْبَدَنْ

قال في شرح الخاتمة : والفقه مقدم على التصوف؛ لأن التصوف إنما يحصل في الغالب بعد مجاهدات ورياضات، ولا تنتج تلك المجاهدات إلا بموافقتها لعلم الشريعة، وإلا كانت عبثا وإتعابا، قال بعض الشيوخ : إذا بدأ المريد بكتب الحديث ثم لزم التصوف نفذ، وإذا بدأ بالتصوف ثم كتب الحديث فتر. أي إذا ابتدأ بالتعبد والتقوى والحال شغل بذلك عن العلم والسنن، فخرج إما شاطحا وإما غالطا؛ لجهله بالأصول والسنن؛ لأن من بدأ بالفرع قبل الأصل ضاع في حقه الأصل والفرع، وذلك كله لأن من ضيع علم الشريعة أوّلا ربما خدعه الشيطان بتزيينه له البدع والخروج عن سنن السلف، فيتخذ إلٰهه هوٰيه فيلتحق بالمبتدعة، ولو سلم من هذا الوجه فلا يؤمن عليه أن يستولي عليه سلطان الحقيقة، وليس له من الشريعة ما يقابله به، فربما باح بالأسرار وهتكها، ووجد الناس السبيل إلى الطعن عليه، وتوجههم بالأذى إليه، فيتكدر عليه صفوه، ويمر حلوه، وسبب هذا كله تفريطه في علم الشريعة.

وفي شرحها أيضا أن الرياضات والمجاهدات لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا ــ وافقت السنة أم لا ــ فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع ومتابعة الرسول ﷺ ينتج تنوير القلب والزهد وجميع الأخلاق المحمودة... إلى أن قال : وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لزيادة بعده وغروره وحماقته، ولايزال به حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه، وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام، ويظن أن المقصود ذكر الله وعدم متابعة السنة، ثم يتدرج من ذلك إلى تزندق نعوذ بالله من الضلال. انتهى منه ناقلا عن صاحب عوارف المعارف.

«كذاك فلينوِ به» أي بطلابه **«شكر المنن»** جمع منة النعمة **«من نعمة العقل»** الإضافة بيانية، أي نعمة هي العقل. **«وصحة البدن»** والشكر : مقابلة النعمة بالثناء، وءاداب الجوارح، وعقد القلب على وصف المنعم بنعت الكمال. وقد قلت :

عَـدَمُ عِصْيَـانِ الإِلٰـهِ بِالنِّعَـمْ حَدُّ بِهِ الشُّكْرَ الْجُنَيْدُ ذُو الْحِكَمْ

لاَ تَنْوِ الإِقْبَالَ مِنَ آلأَنَـامِ بِـهِ وَالإِسْتِجْـلاَبَ لِلْحُطَـامِ
كَكُلِّ قَصْدٍ لَيْسَ بِآلْمُـزْدَانِ مِثْلَ الْكَرَامَةِ لَدَى آلسُّلْطَانِ

اليوسي : حسن النية هو أن ينوي بالتعلم امتثال أمر الله تعالى في طلب العلم، والتقرب إليه، وتحصيل العلم؛ ليعبد الله تعالى، ورجاء اللحاق بأهله، والخروج عن حضيض الجهل المذموم عند الله تعالى، والسلامة من آفات الجهل وغوائله ونحو هذا.

وقال في نور البصر في تنمية النية : فينوي طالب العلم في كل مسألة تفصيلا إن قدر، وإلا فإجمالا.. أداءَ المفروض عليه بتعلمه ما يلزمه في خاصة نفسه، وما زاد على ذلك ينوي به القيام عن الناس بفرض الكفاية، ولا يقتصر فيه على نية الندب؛ لأن أجر الفرض أعظم بكثير، وينوي أيضا أن يعمل بما علمه في خاصة نفسه، وأن يعلمه كل من أمكنه تعليمه، وينوي أيضا التوصل بتعليمه لينفع الطبقات بالوسائط علما وعملا إلى يوم القيامة، وينوي أيضا أن يشغل نفسه بطاعة الله عن معصيته، وشغلها عن الفضول الذي لو لم يكن فيه إلا تضييع العمر الذي هو رأس المال لكان كافيا في نفور نفس العاقل عنه، كيف وفيه مع ذلك أمور منها أن صاحبه يشغل الكرام الكاتبين بما لا خيرَ فيه، انظر بقيتها فيه.

«لا تنو الاقبال من الأنام» أي توجيههم إليك **«به»** أي بطلابه **«والاستجلاب للحطام»** أي أخذ متاع الدنيا منهم **«ككل قصد ليس بالمزدان»** أي بالحسن شرعا **«مثل الكرامة»** أي التكرم والقرب **«لدى السلطان»** وغيره إلى غير ذلك مما لا يكون فيه رضاه جل ورضى رسوله ﷺ.

الغزالي : الناس في طلب العلم ثلاثة : رجل طلبه ليتخذه زادا إلى المعاد لم يقصد إلا وجه الله فهذا من الفائزين، ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة وينال به الجاه والمال ومع ذلك يعتقد خسة مقصده وسوء فعله فهذا من المخاطرين، فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه سوء الخاتمة، وإن وفق لها فهو من الفائزين، ورجل استحوذ عليه الشيطان فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال والتفاخر بالجاه والتعزز بكثرة الأتباع، وهو مع ذلك يضمر أنه عند الله بمكان؛ لاتسامه بسمة

العلماء فهذا من الهالكين المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته؛ لظنه أنه من المحسنين.

وفي المدخل : قال بعض السلف : من طلب العلم لوجه الله لم يزل معانا، ومن طلبه لغير الله لم يزل مهانا.

وفيه أيضا : يتعين على طالب العلم الهرب الكلي من الولاية وأسبابها؛ إذ أنها احتوت ـــ سيما في هذا الزمان ـــ على حظوظ النفس من الرياسة الموجودة فيها قال بعض الأكابر : الزهد في الرياسة أفضل وأعظم من ألف زهد في المال إلى أن قال : فيتعين الهرب من الولاية مهما أمكن، والعمل على البراءة منها، وهو أبرأ للذمة، وأخلص من التبعات عاجلا وآجلا، ولو لم يكن فيها إلا التفرقة عن الاشتغال بالعلم والإقبال عليه والانقطاع إلى الله تعالى إن كان بعد الأربعين.

كنون : وفي وصلة الزلفى عن الحسن رضي الله عنه : عقوبةُ العالم الذي لم يعمل بعلمه في الدنيا موتُ قلبه، قيل : وما موت القلب ؟ قال : طلب الدنيا بعمل الآخرة، قال : فإن انضاف إلى هذا أن يتصدى به إلى تولّي الأعمال السلطانية، أو يكتسب به مالاً من شبهة فقد تعرّض لغضب الله وسخطه، وباء بإثمه وإثم المقتدين به... إلى أن قال ما نصه : نعم قال المواق في سنن المهتدين : الذي يتبيّن من الفقه أن الصناعات والتجارات والاشتغال بالعلم الزائد على فرض العين وعلم الطب.. كل ذلك أسباب شرعية، فعلى هذا فمن اشتغل بشيء من ذلك بلا نية فهو ظالم لنفسه، ـــ وإن كان لا دَرَكَ عليه ـــ لكن فاته الأجر، وإن قصد بذلك فرض الكفاية فهو سابق بالخيرات، وإن قصد بذلك الاستعفاف عن المسألة كان مقتصدا.

وقال في موضع آخر : الذي هو من المقتصدين من جعله سببا للدنيا، أي المحتاج إليه من وجه حلال، فمن قائل يقول : هو من خير الأسباب، ومن قائل يقول : طلب الدنيا بالدف والمزمار أحب إلي من طلبها بالعلم والدين.

.قال العلامة ابن زكري في شرحه للحكم : وكلام المواق حسن، لاسيما في هذا الوقت الذي عزب فيه العلم وقلّ أهله، وكاد الناس يختلفون في الضروريات، فقراءته من أهم المهمات، والسعي في تعلمه وتحصيله من أعظم العبادات، وإن

وَقَلَّمَا يَرْغَبُ فِي دُنْيَا الْوَرَى ... مَنْ لَذَّةَ الْعَمَلِ وَالْعِلْمِ يَرَى
وَلْتَسْتَمِعْ قَوْلَ الْبَلِيغِ الشَّادِي ... مَنْ طَلَبَ الْعُلُومَ لِلْمَعَادِ
نَعَمْ طِلاَبُ الْجَاهِ جَرًّا الأَمْرِ ... بِالْعُرْفِ وَالنَّهْيِ عَنْ آمْرٍ نُكْرِ
تَنْفِيذِ حَقٍّ مع إعْزَازِ قُوَى ... ذَا الدِّينِ لاَ مُرَادِ نَفْسٍ وَهَوَى
بِقَدْرِ مَا بِهِ يُقِيمُ ذَلِكْ ... فَذَا طَرِيقَةَ الْجَوَازِ سَالِكْ

لم يتيسر لقارئه الخشية فبوجود العلم بين ظهراني المسلمين تُحفَظ فيهم قواعد الإيمان والإسلام، ويتقرر الدين، وتعرف كيفية التعبد لله رب العالمين.

ثم نقل كنون عن ابن زكري أيضا أن كل ما ذكره الشيوخ في النهي عن قراءة العلم بالنيات الفاسدة والتحذير من ذلك فليس مرادهم به ترك قراءته والإعراض عنه، كيف وهو مطلوب على جهة التعيين أو الكفاية ؟.. وإنما مرادهم بذلك التنبيه والإيقاظ لإصلاح النية في قراءته، والاجتهاد في تحصيل الإخلاص فيه، وإلا أدى الأمر إلى تركه الذي هو عين الجهل وأصل الفساد، ثم نقل ما يشهد لما ذكره من أن مرادهم الترغيب في إخلاص العمل، لا ترك العمل. فانظره.

«وقلما يرغب في دنيا الورى من لذة العمل والعلم يرى» يعني يجد أي تقل رغبته فيما عندهم، أو تعدم؛ لكون العلم أعز الأشياء وألذها عنده، فلا يطلب شيئا آخر. **«ولتستمع قول البليغ»** وهو أبو حنيفة **«الشادي : من طلب العلوم للمعاد»** قال :

مـن طـلب العلـم للمعـادِ ... فـازَ بـفضلٍ مـن الـرَّشادِ
فيـا لخسران طالبيـهِ ... لنيـل فضل مـن العبـادِ

«نعم» قد يستثنى من قصده بطلبه الكرامةَ **«طلاب الجاه جرّا»** أي لأجل **«الأمر بالعرف والنهي عن امر نكر»** بالضم أي منكر، ولا يمكن إلا بأن يكون الآمر والناهي ذا عز وجاه، أو لأجل **«تنفيذ حق»** أي جعله نافذا **«مع إعزاز قوى ذا الدين»** فيجعله عزيزا غالبا **«لا»** لأجل تحصيل **«مراد نفس وهوى»** وكان طلابه الجاه بالعلم **«بقدر ما به يقيم ذلك»** الأمر بالعرف والنهي عن النكر، اللذين هما من أشرف العبادة **«فذا»** الطلاب المذكور **«طريقة الجواز سالك»** فإنه وإن

وَالْعِلْمُ بِالْجَهْدِ الْكَثِيرِ يُكْتَسَبُ فَاصْرِفْهُ عَنْ حَقِيرِ دُنْيَا يُجْتَلَبُ
وَأَلْقِ سَمْعَكَ لِقَوْلِ مَنْ عَقَلْ فَقَالَ فِي الدُّنْيَا هِيَ الدُّنْيَا أَقَلّْ

كان في الظاهر لأجل الجاه، لكنه في الحقيقة لأجل تحصيل المعاد، بسبب إقامة الأمر بالمعروف. **«والعلم بالجهد»** بالفتح : المشقة **«الكثير يكتسب فاصرفه عن حقير دنيا»** قليل فانٍ **«يجتلب»** به. قال في لطائف المنن : وحيثما وقع العلم في كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإنما المراد به العلم النافع، المخمدُ للهوى، القامع، الذي تكتنفه الخشية، وتكون معه الإنابة، قال الله سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(38) فلم يجعل علم من لم يخشه من العلماء علما. وقد قال داوود عليه السلام : يارب ما علم من لم يخشك ؟ وما خشية من لم يطع أمرك ؟. فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة في الدنيا والتملق لأربابها، وصرف الهمة إلى اكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل ونسيان الآخرة، فما أبعدَ من هذا العلمُ علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء!! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه ؟! ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهي تحرق نفسها،! جعل الله العلم الذي علم من هذا وصفه حجة عليه، وسببا في تكثير العقوبة لديه، ولا يغرنك أن يكون به انتفاع البادي والحاضر، فقد قال ﷺ : (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر)(39) ومثل من يتعلم العلم لاكتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من يرفع العذرة بملعقة من ياقوت، فما أشرف الوسيلة وأخس المتوسل إليه !! ومثل من قطع الأوقات في طلب العلم، فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويجدد الطهارة، و لم يصلِّ صلاة واحدة؛ إذ مقصود العلم العمل كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة. **«وألق سمعك»** أي اصغ **«لقول من عقل»** فزهد **«فقال في الدنيا هي الدنيا أقل»** :

---

(38) فاطر 28.

(39) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى.

ثُمَّتَ الإذْلاَلَ لِنَفْسِكَ دَعِ بِطَمَعٍ لاَ بِمَحَلِّ طَمَعِ

هي الدنيا أقل من القليل وعاشقها أذل من الذليل
تصم بسحرها قوما فتعمي فهم متحيرون بلا دليل

«ثمت الاذلال لنفسك دع» فلا تجعلها ذليلة «بطمع لا بمحل طمع» وأما الطمع في مطمع كتحصيل علم فإذلال النفس بهذا الطمع جائز لا ضرر فيه، بل هو عين العزة في الحقيقة، وللشافعي رحمه الله تعالى :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع كأس الجهل طول حياتِهِ
ومن فاته التعليم وقت شبابه فكبر عليه أربعا لوفاتِهِ
فإن حياة المرء بالعلم والتقى فإن لم يكونا لا اعتبارَ لِذاتِهِ

قال في لطائف المنن : وشعار أهل الإرادة ودثارهم الاكتفاء بالله، ورفع الهمة عما سواه، وصيانة ملابس الإيمان، من أن تدنس بالميل إلى الأكوان، والطمع في غير الملك المنان. وكان بعض العارفين ينشد :

حرام على من وحد الله ربه وأفرده أن يجتدي أحدا رفدا
ويا صاحبي قف بي مع الحق وقفة أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وقل لملوك الأرض تبذل جهدها فذا الملك ملك لا يُباع ولا يهدى

ولبعضهم وأجاد :

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لي سلَّما
وما كل برق لاح لي يستفزني ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل هذا مورد قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لاكن لأخدما
أأغرسه عزا وأجنيه ذلة ؟ إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما !!
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما !

وَلْتَحْتَرِزْ مِنْ مُوجِبِ الْمَذَلَّهْ لِلْعِلْـمِ أَوْ لأَهْلِـهِ الأَجِلَّـهْ
وَاكْتَسِ مِنْ تَـوَاضُعٍ بِحُلَّـهْ وَهُـوَ بَيْـنَ الْكِبْـرِ وَالْمَذَلَّـهْ
كَـذَلِكَ الْعِفَّـةُ بَيْـنَ ذَيْـنِ وَاسِطَةٌ أَبْهَـى مِـنَ اللُّجَيْـنِ

«ولتحترز من موجب المذله للعلم» احترز من الشيء توقّاه. **«أو»** موجبها **«لأهله الأجله»** أي العظماء، فلا تضع نفسك في مواضع الابتذال والرذالة، فعن مثل هذا يلزم التحرز؛ لئلا يلزم تحقير العلم وأهله. اليوسي : من آداب العالم أن يصون العلم كما صانه أهله، ويحفظ عليه ديباجته وشرفه، فلا يمتهنه بذهابه إلى غير أهله من أبناء الدنيا من غير ضرورة، أو إلى من يتعلم منه، ففي بيته يوتى الحكم.

ابن عباد : قال وهب ابن منبه رضي الله عنه : كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، وكانوا لا يلتفتون إلى دنيا غيرهم، وكان أهل الدنيا يبذلون لهم دنياهم رغبة في علمهم، فأصبح أهل العلم فيها اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم؛ لما رأوا من سوء موضعه عندهم. **«واكتسِ من تواضع بحله»** بالضم : إزار ورداء، ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة. ففي الحديث : (تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولمن تعلمونه ولا تكونوا جبابرة العلماء)(40) قال في المدخل : وإذا كان التواضع مطلوبا في العالم فمن باب أولى في المتعلم، فينبغي له أن يكون تواضعه أكثر حتى لو صار أرضا توطأ كان قليلا بالنسبة إلى ما هو بطلبه، ولأن التواضع يقبل القلوب عليه، وينشط من يعلمه لتعليمه وإرشاده، والتواضع أصل كل خير وبركة على كل شيء **«وهو»** أي التواضع حالة متوسطة **«بين الكبر»** المحرم **«والمذله»** للنفس المحرمة، فالمقبول ما بينهما، وهو التواضع، فخير الأمور أوسطها. **«كذلك العفة»** أي التنزه عن الحرام **«بين ذين»** أي التكبر والمذلة **«واسطة أبهى»** أي أحسن **«من اللجين»** أي الفضة، فاكتس بحلة منها أيضا، فلا

---

(40) إتحـاف.

إنَّ التَّوَاضُعَ خِصَالُ الْمُتَّقِـي مِنْهَا كَمَا قَالَ الأَدِيبُ الْمُرْتَقِي

تتكبر عن طلب الحلال، ولا تذل نفسك بطلب الحرام. **«إن التواضع خصال المتقي منها»** هو **«كما قال الأديب»** عَلَماً وصفة **«المرتقي»** في مراقي الأدب، قال :

إنَّ التواضُعَ من خصالِ المُتَّقِي وبِهِ التقيُّ إلى المعالِي يرتَقِـي
ومِن العجائِب عُجْب من هُوَ جاهلٌ فِي حالِه أَهُو السَّعيدُ أم الشقِي ؟
أم كيف يختم عمره ؟ أو روحُه يوم النوى متسفل أو مرتقي ؟
والكبريـاء لربنـا صفـة بـه مخصوصة فتجنـبنها واتـق

قال بعض السلف : من تكبر بعلمه وترفع به وضعه الله به، ومن تواضع بعلمه رفعه الله به. وقد قيل في منثور الحكم : إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء. ولابن العميد :

من شاء عيشا هنيئا يستفيد به في دينـه ثم في دنيـاه إقبـالا
فلينظرنّ إلى من فوقه أدبـا ولينظرنّ إلى من دونـه مـالا

وقلما تجد بالعلم معجبا، وبما أدركه منه مفتخرا، إلا من كان فيه مقلا ومقصرا؛ لأنه قد يجهل قدره، ويحسب أنه نال بالدخول فيه أكثره، أما من كان فيه متوجها، ومنه مستكثرا فهو يعلم من بعد غايته والعجز عن إدراك نهايته.. ما يصده عن العجب به، وقد قال الشعبي : العلم ثلاثة أشبار، فمن نال منه شبرا شمخ بأنفه وظن أنه نال كله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدا. قاله الماوردي.

وفي المدخل عن كتاب القوت : إذا جمع العالم ثلاثا تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر والتواضع وحسن الخلق، وإذا جمع المتعلم ثلاثا تمت النعمة بها على العالم : العقل والأدب وحسن الفهم. فمن أراد الرفعة فليتواضع لله تعالى فإن العزة لا تقع إلا بقدر النزول. انتهى منه، وقد قلت :

وَمَـنْ لنـفْسِهِ مَزِيَّـةً يـرَى عَلَى سِواهُ فَهُوَ قَـدْ تَكَبَّـرَا
وَالْمُتَـواضِعُ هُـوَ الْمُسْتَصْغِـرُ لِنَـفْسِهِ بِـذَاكَ قَـدْ يُـفَسَّرُ

أَمَـرَ بِٱلْعَمَائِـمِ الْعِظَـامِ   ٱلْحَنَفِـي وَسَعَـةِ الأَكْمَـامِ
كَيْ لاَ يُهَانَ الْعِلْمُ بَيْنَ النَّاسِ   إِذْ نَظَرَ النَّاسِ إِلَى ٱللِّبَاسِ

فصل في اختيار العلم والاستاذ والشريك والثبات على العلم

اِبْدَأْ بِمَا احْتَجْتَ لَهُ فِي ٱلْحَالِ   فِي الدِّينِ مِنْ عِلْمٍ فَفِي ٱلْمَآلِ
وَقَـدِّمِ التَّوْحِيـدَ بِٱلأَدِلَّـهْ   إِذْ أَثَّـمَ الْمُقَلِّـدَ الأَجِلَّـهْ

«**أمر**» صحبه «**بالعمائم العظام الحنفي و**» أمرهم بـ«**سعة الأكمام كي لا يهان**» أي يحتقر «**العلم**» وأهله «**بين الناس إذ نظر الناس إلى اللباس**» وفي الموطأ أن عمر بن الخطاب قال : إني لأحب أن أنظر إلى القارىء أبيض الثياب. الزرقاني : أي أستحب لأهل العلم حسن الزي والتجمل في أعين الناس. «**فصل في اختيار العلم والأستاذ والشريك والثبات على العلم. ابدأ**» أيها الطالب «**بما احتجت له في الحال في**» أمر «**الدين من علم**» فتختار علم ما يفرض عليك في الحال كالصلاة «**فـ**»ـما تحتاج إليه «**في المآل**» كحج لم يفرض عليك في الحال؛ لفقد شرط وجوبه. «**وقدم التوحيد**» أي علمه الذي هو أساس سائر العلوم عليها، واعرف الله تعالى «**بالأدله**» ولا تكتف بالتقليد «**إذ أثم المقلد**» التارك للاستدلال، أي حكم بإثمه «**الأجله**» لأن الله تعالى أعطى نعمة العقل للإنسان ليستدل به على وجودِه ووحدته وأمهات أوصافه، فإذا لم يستدل به لم يكن مؤديا شكر نعمته فيأثم.

ثم إن الدليل الجملي يكفي، وقد فسره الأشياخ بما إذا قيل للمكلف : أتعتقد أن الله موجود ؟ فيقول : نعم، فيقال له : وما الدليل على ذلك ؟ فيقول : هذه المكونات ويعجز عن كيفية دلالتها من حدوثها أو إمكانها أو هما معا، ولا يشترط

وَاخْتَرْ قَدِيمَ الْعِلْمِ دُونَ الْمُحْدَثِ وَاحْذَرْ مِنَ ٱلْجَدَلِ مَهْمَى تَبْحَثِ
لِجَلْبِهِ عَدَاوَةً لَعَمْرِي وَكَوْنِهِ مُضَيِّعاً لِلْعُمْرِ
وَهْوَ مِنَ ٱشْرَاطٍ أَتَتْ لِلسَّاعَهْ وَرَفْعِ عِلْمٍ أَوْجَبَ ٱرْتِفَاعَهْ

التعبير عما حصل في القلب كما في المباحث. «**واختر قديم العلم**» وهو علم النبي عليه السلام وصحبه والتابعين وتابعيهم «**دون**» العلم «**المحدث**» الذي لم يوجد في زمنهم، بل أحدث بعدهم كالمنطق وعلم الخلاف «**واحذر من الجدل**» والخلاف الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء «**مهمى تبحث**» في العلم. قال في نور البصر : كان مالك كثيرا ما يتمثل بقول القائل :

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

وكان يكره المراء والجدال في العلم، ويقول إنه يذهب نور العلم من القلب، وإذا جاء أحد من أهل الأهواء يقول له : ياهذا أما أنا فعلى بصيرة من ربي، وأما أنت فشاكٌّ فاذهب إلى شاكٍّ مثلك فخاصمه، ثم يقرأ : ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى ٱللَّهِ... الآية﴾[41] «**لجلبه عداوة**» ووحشة «**لعمري**» إنه ليجلبها «**وكونه مضيعا للعمر**» بصرفه لغير مهم، ومبعدا للطالب عن الفقه «**وهو**» أي الاشتغال به «**من اشراط**» جمع شرط بالتحريك للعلامة «**أتت**» يعني وردت «**للساعه و**» من أشراط أتت لـ«**رفع علم**» وفقه «**أوجب ارتفاعه**» اليوسي : ينبغي له أن يبتدئ أولا بتحصيل القرآن حفظا وإتقانا وفهما؛ لأنه أم العلوم وأهمها، ولرجاء بركته وتنوير القلب به، ولأنه أولى بالتقديم من كل وجه، ولايزال يتعهده على مرور الأيام تلاوة وتدبرا وعملا بما فيه، فذلك أساس الخيرات، وليحذر نسيانه والغفلة عنه فذلك مفتاح الشر، ثم يشتغل – بعد – بالفنون، الأهم فالأهم، والأقرب فالأقرب، وليتبع في الترتيب إشارة الشيخ إن كان مشاركا، وإلا اشتغل بما عنده حتى يتقنه إن لاق في الوقت، وإلا اشتغل باللائق، وطلب من يتقنه عليه... ثم قال – بعد كلام – : فالأولى بالطالب اليوم أن يبتدئ بكتاب الله تعالى كما قلنا؛ تبركا وتنويرا، ولا يطلب التغلغل في علومه أولا؛ لأن ذلك يذهب بعمره مع أنه لا يصل غالبا إلى تحقيق ذلك قبل أن يستعين عليه بعلوم أخرى، ثم يأخذ في

---

(41) يوسف 108.

أَمَّا ٱخْتِيَارُ الشَّيْخِ فَٱخْتَرْ أَعْلَمَا أَسَنَّ أَوْرَعَ وَشَاوِرْ تَعْلَمَـــا

القواعد اللغوية والعقلية حتى إذا تضلع منها أقبل على العلوم الشرعية دليلا ومدلولا أصلا وفرعا، فإن أفنى نفيس عمره في ذلك فنعمت التجارة، والعلوم كثيرة لا يسع العمر التبحر فيها كلها إلا أن تخرق العادة لأحد، فليأخذ من كل فن أحسنه وما لابد منه فيه؛ ليتفرغ للعمل والتزود للمعاد الذي هو المقصود، وإن رأى طبعه مال إلى فن من الفنون أكبَّ عليه إن كان مُهمّا أو ذريعة لمهم، وكذا إن رأى طبعه نافرا عن فن من الفنون ورأى في نفسه جمودا عنه فلْيَغْنَ عنه ولْيشتغل بغيره كما قيل:

إذا لم تستطـع شيئـا فدعـــه وجـاوزه إلى مــا تستطيـــع

فإن كان شرعيا مقصودا بالذات فليتكلف منه معرفة ما هو فرض عين عليه وليترك ما سوى ذلك ولا يغفل، مع الإقبال على القواعد من تعهد ما يرجو بركته وتنوير قلبه به من تلاوة كتابه، وذكر حديثه عليه السلام، وكلام أرباب القلوب. **«أما اختيار الشيخ فاختر»** أستاذا **«أعلما أسن أورع»** أي له زيادة علم وسن وورع أي تحرز عن الحرام فتأمل في اختياره **«وشاور»** في أمره حتى لا تحتاج إلى تركه والإعراض عنه، فإنك إن تشاور **«تعلما»** جواب شرط مقدر كما قررنا لحقته نون توكيد خفيفة. وذلك لئلا تبتدئ بعالم فلا يعجبك، فتذهب لغيره، فيتأذى بتركك إياه، فلا يبارك لك في التعلم، فتنبغي المشاورة في كل أمر، لاسيما في طلب العلم فهو من أعلى الأمور وأصعبها، فكانت المشاورة فيه أهم وأوجب، قيل: رجل، ونصف رجل، ولاشيء، فالرجل من له رأي صائب ويشاور، ونصف رجل من له رأي صائب ولكن لا يشاور أو يشاور ولكن لا رأي له، ولا شيء من لا رأي له ولا يشاور.

اليوسي: من الآداب أن يتحرى الصالح للمشيخة بأن لا يأخذ العلم والأدب إلا ممن هو أهل لأن يوخذ عنه ويعرف ذلك إما بالنظر إن كانت له يد في العلم في الجملة، وإما بتقليد العارفين سؤالا واستخبارا فيأخذ عن المحقق الثقة، ويتحرّى أهل الدين المتأدبين، ومن جعل الله الفتح على يده للعباد؛ رجاء أن يأخذ العلم وأدبه والعمل به، فإنه لا خير في علم بلا عمل، ولا في زيادة علم مع نقصان

وَلاَزِمِ ٱلثَّبَاتَ وَٱلصَّبْرَ عَلَيْـهْ ... حَتَّى تَنَالَ مَا مِنَ ٱلْعِلْمِ لَدَيْهْ
عَلَى ٱلْكِتَابِ فَٱصْطَبِرْ حَتَّى تَرَى ... إِتْمَامَـهُ فَلَـمْ تَكُـنْ بِأَبْتَـرَا
وَٱصْبِرْ عَلَى فَنٍّ فَلاَ تَشْتَغِلِ ... بِغَيْرِ ذَاكَ الْفَنِّ مَا لَمْ يَكْمُلِ

أدب، وقد قال بعض السلف : هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، وليحذر ممن فيه نزغة بدعة أو سوء اعتقاد؛ لئلا يسري ذلك إليه فيهلك مع الهالكين، أو تورط في أودية الدنيا وصحبة الظلمة؛ مخافة أن ينجر بذلك إليها، وليحذر أن يتقيد بالمشاهير وذوي الجاه ويعرض عن ذوي الخمول إن كانت فيهم أهلية، بل يتبع أهل الحق والتحقيق، ولا يستنكف كيفما كانوا؛ إذ العلم ضالة المؤمن لا يستنكف أن ياخذها من يد من وجدها بيده رفيعا أو وضيعا.

«ولازم الثبات» عنده **«والصبر عليه حتى تنال ما من العلم لديه»** فقد أقام مالك رحمه الله تعالى خمسة عشر سنة يغدو من منزله إلى منزل ابن هرمز ويقيم عنده إلى صلاة الظهر. **«على الكتاب فاصطبر»** فلا تتركه **«حتى ترى»** : توقن **«إتمامه»** واقعا **«فلم يكن بأبترا»** : ناقصا **«واصبر على فن»** من فنون العلم **«فلا تشتغل بغير ذاك الفن ما لم يكمل»** وقد عد اليوسي في عوائق العلم الانتقال من علم إلى علم آخر قبل تحصيل المراد منه، ومن كتاب إلى كتاب قبل تكميله. وقال في الإحياء : من وظائف المتعلم أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا، وبعضها طريق إلى بعض، والموفق من راعى ذلك الترتيب، قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ﴾(42) أي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علما وعملا، وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي إلى ما هو فوقه. وفي الإحياء أيضا : إذا كان العمر لا يتسع لجميع العلوم غالبا فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه. ولبعضهم :

ما حوى العلمَ جميعاً أحدٌ ... لا ولو مارسه ألفَ سنه
إنما العلمُ كبحرٍ زاخرٍ ... فَخُذُوا من كل شيءٍ أحسنه

---

(42) البقرة 120.

وَبَلَـدٍ فَالِانْتِقَـالَ اتَّـقِ لاَ تَكُنْ بِلاَ ضَرُورَةٍ مُنْتَقِـلاَ
إِذْ ذَاكَ شُغْلُ قَلْبِ ذِي ٱلتَّعَلُّمِ ضَيَاعُ وَقْتٍ وَأَذَى مُعَلِّـمِ
وَاصْبِرْ عَنِ الَّذِي يُرِيدُهُ الْهَوَى فَهْوَ الْهَوَانُ مَنْ يُقَلِّدْهُ هَوى
وَاصْبِرْ عَلَى الْمِحْنَةِ وَالبَلِيَّـهْ تَصِلْ مِـنَ الْعُلُومِ لِلأُمْنِيَّـهْ
خَزَائِنُ الْمُنَى لَدَى أُولِي الْفِطَنْ قَدِ ٱحْتَوَتْ عَلَى قَنَاطِيرِ الْمِحَنْ

«و» اصبر على **«بلد»** شرعت في تحصيل العلم فيه **«فالانتقال»** عنه إلى آخر **«اتق»** أي احذره فـ**«لا تكن بلا ضرورة»** توجبه **«منتقلا»** فإن كانت ضرورة فلابأس به. **«إذ ذاك»** كله من عدم إتمام الكتاب والفن، ومن انتقال بلا ضرورة فيه **«شغل قلب ذي التعلم»** وفيه **«ضياع وقت وأذى معلم واصبر عن الذي يريده الهوى»** والنفس من اللذائذ الشهوانية والنفسانية **«فهو الهوان»** أي الحقارة والمذلة؛ لأنه يوقع صاحبه فيهما **«من»** يغلبه و**«يقلده»** صرعه فـ**«هوى»** أي سقط وذل قال :

إن الهوى لهو الهوان بعينـه وصريع كل هوى صريع هوان

وقد عدّ اليوسي في العوائق الاتساع في الدنيا، والاشتغال بتوفيرها وتنميتها وتقاضي ملاذها، وتقلد الولايات — ولو دينية كالقضاء والإمامة الصغرى — وتعليم الصبيان، فالكل عوائق عن الاستغراق في الطلب، ومنها الاشتغال بتحصيل الدنيا؛ حرصا عليها واعتناء بها. **«واصبر على المحنة»** بالكسر ما يمتحن به الإنسان من بلية وشدة **«والبليه»** في طريق العلم **«تصل من العلوم للأمنيه»** بالضم أي للمقصود، ولبعضهم :

إن الأمور إذا انسدّت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وإن طالت مطالبـة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

«خزائن المنى» جمع منية : المقصود **«لدى أولي الفطن»** جمع فطنة بالكسر الحذق **«قد احتوت»** أي اشتملت **«على قناطير المحن»** جمع قنطار المال الكثير، وإن أضيف إلى شيء فالكثير منه. يعني أن خزائن المقاصد مشتملة على المحن

قَوْلُ الْبَلِيغِ لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَا إِلاَّ بِسِتَّةٍ بِهِ آحْتَطْ عِلْمَا
وَاخْتَرْ شَرِيكاً وَرِعاً مُجِدَّا صَاحِبَ طَبْعٍ مُسْتَقِيمٍ جِدَّا
وَمُتَفَهِّماً دَعِ الْكَسْلاَنَا وَالْمُفْسِدَ الْمِكْثَارَ وَالْفَتَّانَا

الكثيرة، فمن أراد أن يحصل المقاصد لابد له أن يصبر على المحن الكثيرة. **«قول البليغ»** قيل إنّه عليٌّ كرم الله وجهه **«لن تنال العلما إلا بستة به احتط علما»** إشارة إلى قوله :

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبئك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبلغة وإرشاد أستاذ وطول زمان

فلابد من ذكاء أي سرعة فطنة، ومن حرص على تحصيله، ومن اصطبار على محنه وبلياته، وفي الحديث : (لا ينال العلم براحة الجسم) ومن بلغة أي كفاية من العيش بحيث لا يحتاج في أمر الرزق إلى الغير، فإن الاحتياج يشوش الفكر، فلا يمكن تحصيل العلم، ولابد من إرشاد أستاذ أي دلالته على وجه الصواب، ومن طول زمان حتى يحصل العلم؛ لأن مقدماته ومباديه كثيرة لا تحصل في أدنى زمان. الماوردي : أما الشروط التي يتوفر بها علم الطالب وينتهي معها كمال الراغب.. مع ما يلاحظ به من التوفيق ويمد به من المعونة فتسعة شروط : الأول : العقل الذي يدرك به حقائق الأمور، والثاني : الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم، والثالث : الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره وفهم ما علمه، والرابع : الشهوة التي يدوم بها الطلب ولا يسرع إليها الملل، والخامس : الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب، والسادس : الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار، والسابع : عدم القواطع المذهلة.. من هموم وأشغال وأمراض، والثامن : طول العمر واتساع المدة؛ لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال، والتاسع : الظفر بعالم سمح بعلمه متأن في تعليمه، فإذا استكمل هذه الشروط التسعة فهو أسعد طالب وأنجح متعلم. **«واختر شريكا ورعا»** أي متعففا عن الحرام **«مجدا»** أي مجتهدا في الطلب **«صاحب طبع مستقيم جدا ومتفهما دع الكسلانا والمفسد المكثار»** أي كثير الكلام **«والفتانا»** ذا الفتنة **«ولتتأمل حكمة الفطين»**

وَلْتَتَأَمَّلْ حِكْمَةَ الْفَطِينِ　　لاَ تَسْأَلَنْ إِلاَّ عَنِ الْقَرِينِ
وَقَوْلَهُ لاَ تَصْحَبِ الْكَسْلاَنَ فِي　　حَالاَتِهِ فَفِيهِ حِكْمَةٌ تَفِي

الحاذق فطن به وإليه وله كفرح ونصر وكرم «**لا تسألن إلا عن القرين**» قال :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم　　ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه　　فكل قرين بالمقارن يقتدي
فإن كان ذا شر فجنبه سرعة　　وإن كان ذا خير فقارنه تهتد

قال في شرح الخاتمة : أما الصحبة فلا تصحب إلا من يهديك حاله قبل مقاله. وقال ذو النون : جالس من تكلمك صفته ولا تجالس من يكلمك لسانه. وهكذا قال الحسن. وكانت طائفة يصحبون أهل المعرفة للتأدب بهم والنظر إلى هديهم وأخلاقهم ــ وإن لم يكونوا علماء ــ؛ لأن التأدب يكون بالأفعال، والتعلم يكون بالمقال. وقال بعض العلماء : وعظ واحد بفعل أوقع من وعظ ألف بقول. ولا يصلح للصحبة كل أحد. وفي الحديث : (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[43]. «و» تأمل أيضا «**قوله لا تصحب الكسلان في حالاته ففيه حكمة تفي**» أي تتم قال :

لا تصحب الكسلان في حالاته　　كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعة　　كالجمر يوضع في الرماد فيخمد

البليد الأحمق، والجليد قوي الفهم، يعني أن سراية بلادة البليد إلى العاقل سريعة كسرعة الجمر الذي يوضع في الرماد فيطفأ فكما أن الجمر إذا وضع في الرماد صار فحما كذلك الجليد إذا اقترن بالبليد يصير بليدا بسرعة بسبب الصحبة المؤثرة.

اليومي : من آداب ساكن المدرسة أن يختار لجواره أحسن الناس خلقا وأتقاهم وأكثرهم إعانة وتحفظا؛ ليحظى بخيره ويسلم من شره، وليتطبع بطبعه فإن الطباع تسترق الطباع.

---

(43) الترمذي والحاكم وأحمد.

فصل في تعظيم العلم وأهله

يَا طَالِبَ الْعِلْمِ مُرِيداً نَيْلَهُ فَعَظِّمِ الْعِلْمَ وَعَظِّمْ أَهْلَهُ
وَعَظِّمِ الشَّيْخَ فَمِنْ تَعْظِيمِ الْعِلْمِ تَعْظِيمُ ذَوِي التَّعْلِيمِ

«فصل في تعظيم العلم وأهله يا طالب العلم» حال كونك **«مريدا نيله»** والانتفاع به **«فعظم العلم وعظم أهله»** الشعراني : ينبغي لكل مسلم أن يكرم علماء زمانه ويجلهم ويوقرهم، ولا يرى لنفسه قدرة على مكافأتهم، ولو أعطاهم جميع ما يملك وخدمهم عمره كله، وهذا عهد من الشارع لنا، وقد أخل به طلبة العلم فلا حول ولا قوة إلا بالله، وينبغي لطالب العلم أن يخاطب شيخه بالإجلال والإطراق وغض البصر كما يخاطب الملوك، ومن أخل بواجب حقوق العلماء فقد خان الله ورسوله ﷺ كما في ابن زكري، وفيه أيضا في الجامع (ليس منا من لم يُجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه) [رواه الإمام أحمد والحاكم عن عبادة بن الصامت قال المناوي وإسناده حسن] ومعرفة حق العالم أن يعرف ما رفع الله من قدره فإنه قال : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(44) فاحترام العلماء ورعاية حقوقهم توفيق وهداية، وإهمال ذلك خذلان وعقوق وخسران.

وقال في جامع بيان العلم وفضله : يروى عن علي بن أبي طالب أنه قال : من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة، وتجلس قدامه، ولا تشر بيديك ولا تغمز بعينيك، ولا تقل : قال فلان خلاف قولك ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه في السؤال، فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لايزال يسقط عليك منها شيء. **«وعظم الشيخ فمن تعظيم العلم تعظيم ذوي التعليم»** قال ابن شأس في جواهره : وبقدر إجلال الطالب للعالم ينتفع الطالب بما يستفيد من علمه. العدوي : وبقدر تحقير الطالب للعالم يحرم الانتفاع بعلمه.

اليوسي : من آداب المتعلم أن يعظم شيخه ولايزال ناظرا إليه بعين الإجلال

---

(44) المجادلة 11.

فَالِاحْتِرَامُ مَنْ يَصِلْ بِهِ يَصِلْ وَتَرْكُهُ بِهِ انْفِصَالُ الْمُنْفَصِلْ
وَانْظُرْ لِحَالِ الْكُفْرِ مُسْتَبَانَهْ لَا بِالْمَعَاصِي بَلْ بِالِاسْتِهَانَهْ
جَرَّاءَ ذَاكَ قِيلَ إِنَّ الْحُرْمَهْ أَفْضَلُ مِنْ طَاعَةِ مُولِي النِّعْمَهْ
قَالَ عَلِيٌّ إِنَّهُ لَعَبْدُ لِمَنْ إِلَيْهِ مِنْهُ حَرْفٌ يَبْدُو
فَإِنْ يَشَأْ أَعْتَقَ أَوْ شَاءَ اسْتَرَقْ وَقَدْ رَأَى حَقَّ الْمُعَلِّمِ أَحَقْ

ويعتقد فيه درجة الكمال، ويتواضع له، ويخضع بين يديه، ويهابه غاية الهيبة، ويعلم أن خضوعه له عزٌّ، وذلته له بين يديه رفعة. ويقال : إن الشافعي عوتب على ذلك فقال :

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وأمسك ابن عباس ــ على جلالة قدره ــ بركاب زيد ابن ثابت رضي الله عنه، وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا... إلى أن قال : وقال الشافعي رضي الله عنه : كنت أتصفح الورقة بين يدي مالك تصفحا رفيقا؛ هيبة له؛ لئلا يسمع وقعها. وقال الربيع : والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي؛ هيبة له. **«فالاحترام»** للأستاذ والعلم وغيرهما مما له مدخل في تحصيل المطلوب **«من يصل»** إلى مطلوب أيا كان **«به يصل»** فما وصل من وصل إلا به **«وتركه به انفصال المنفصل»** عن المراتب العلية، فما سقط من سقط عنها إلا بترك الحرمة والتعظيم، وقد ذكر كنون عن الشيخ زروق أن من استحقر أستاذه ابتلاه الله بثلاث عقوبات : الأولى : أن ينسى ما حفظ منه، الثانية : أن يكل لسانه عند الفزع، الثالثة : أن يخرج من الدنيا بغير إيمان.

«وانظر لحال الكفر مستبانه» في الشخص **«لا بالمعاصي»** فلا يكفر بها **«بل»** إنما يكفر **«بالاستهانه»** أي الاستخفاف بأمر الله ونهيه **«جراء ذاك قيل إن الحرمه»** أي الاحترام **«أفضل من طاعة»** الله **«مولي النعمه»** أي مسديها. **«قال علي»** كرم الله وجهه **«إنه لعبد لمن إليه منه حرف»** واحد **«يبدو»** : يظهر بأن علمه إياه **«فإن يشأ»** باع، وإن شاء **«أعتق أو شاء استرق»** أي جعله رقيقا وأسيرا للخدمة **«وقد رأى»** علي أيضا **«حق المعلم أحق»** أي أشد حقية من سائر الحقوق حيث قال :

أُبوكَ فِي ٱلدِّينِ أُخو التَّبيينِ   لِحَرْفِ ٱحْتَجْتَ لَهُ فِي ٱلدِّينِ

رأيت أحق الحق حقَّ المعلم   وأوجبه حفظا على كل مسلم
لقد حق أن يهدى إليه كرامة   لتعليم حرف واحد ألف درهم

«أبوك في الدين أخو التبيين» والتعليم **«لحرف احتجت له في»** أمر **«الدين»** روي عنه عليه السلام أنه قال : (خير الآباء من علمك) قال في الإحياء في تعداد وظائف المعلم المرشد : الأولى : الشفقة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه، قال رسول الله ﷺ : (إنما أنا لكم مثل الوالد لولده)(45) بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة. قال شارحه مرتضى : وعبارة الذريعة حق المعلم أن يجري متعلميه مجرى بنيه، فإنه في الحقيقة لهم أشرف الأبوين كما قال الإسكندر وقد سئل عن ذاك أمعلمك أكرم عليك أم أبوك ؟ فقال : معلمي؛ لأنه سبب حياتي الباقية ووالدي سبب حياتي الفانية. وفي العدوي نقل النووي في تهذيب الأسماء واللغات أن عاقّ المعلم لا تقبل توبته، بخلاف عاق الوالدين. وفي ابن زكري وكنون عن سراج المريدين ما نصه : وكما يلزم بر الوالدين يلزم بر المعلمين على المتعلمين بأن يقبلوا يده ويعينوه في شغله، ويمشوا إن ركب حوله، ويعظموا قدره ويجعلوه قبلتهم، وينظروا إليه وينصتوا له، ويوقروه ويستأذنوه في السؤال، ولا يحفظوا زلته، ولا يتطلبوا غرته، وليستروا عورته، وهم في الحقيقة آكد من الآباء في المبرة.

الماوردي : وقد رجح كثير من الحكماء حق العالم على حق الوالد حتى قال بعضهم :

يا فاخرا للسفاه بالسلف   وتاركا للعلاء والشرف

---

(45) أبو داوود والنسائي وابن ماجة.

لاَ تَجْلِسَنْ مَكَانَهُ وَلاَ أَمَامْ تَمْشِ وَلاَ تَبْدَأْ بِلاَ إِذْنٍ كَلاَمْ
لاَ تُكْثِرِ الْكَلاَمَ عِنْدَهُ وَلاَ تَسْئَلْهُ شَيْئاً إِنْ عَلِمْتَ الْمَلَلاَ

آبـاء أجسادنـا هـم سبب لأن جعلنـا عـرائض التلـف
من علم الناس كان خير أب ذاك أبو الروح لا أبو النطف

ونحوه في شرح الخاتمة وزاد :

فضل المعلم قدر ليس يبلغـه حُنُوُّ أم ولا يحويه عطف أب
هـذا يدبـر في الدنيا معيشتـه وذا يمكنـه مـن أرفـع الـرتب

«لا تجلسن مكانه» قال اليوسي في وصيته : وليتأدب معه الأدب البالغ.. فلا يطأ سجادته، ولا يجلس في مكانه، ولا يلبس ثوبا لبسه ولا يتزوج زوجة طلقها أو مات عنها إلى غير ذلك من كل ما يستحسن شرعا أو عادة **«و»** إذا خرجت معه فـ**«لا أمام تمش»** ولا إلى جنبه، بل كن وراءه واستثنوا أربعة مواضع ينبغي التقدم فيها بين يدي الشيخ، وذلك : إذا نزلوا سفلا، أو انطلقوا ليلا، أو خاضوا سيلا، أو حذروا ويلا، أي شيئا يتقى. أما أولا فمخافة أن يقع للشيخ زلل فيتداركه من تحته، ولئلا يزل هو فيقع عليه، وأما ثانيا فمخافة أن يكون في الطريق شيء يؤذي من حيوان أو غيره فيلقاه عن الشيخ، وأما ثالثا فلتجربة المحل؛ لئلا تكون بركة يغرق فيها أو يكون الماء شديدا لا يحتمل، وأما رابعا فظاهر. ويلحق بالأربعة ما أشبهها، وقد يحسن المشي إلى جنبه حين يحب الشيخ الأنس به أو بحديثه أو تحديثه، وقد يأذن له الشيخ في الأخذ عنه تلك الساعة، وينبغي حينئذ أن يحيد له عن الجادةِ، ولا يزاحمه. انظر قانون اليوسي. **«ولا تبدأ»** عنده **«بلا إذن»** منه **«كلام لا تكثر الكلام عنده»** من غير حاجة ولا تعبث بيدك ولا بغيرها، ولا تلتفت يمينا ولا شمالا من غير حاجة، بل تكون متوجها إلى الشيخ مصغيا إلى كلامه. قاله في التبيان. **«ولا تسأله شيئا إن علمت المللا»** منه قال في التبيان : مما يتأكد الاعتناء به أن لا يقرأ على الشيخ في حال شغل قلب الشيخ ومله واستيفازه وروعه وغمه وفرحه وعطشه ونعاسه وقلقه ونحو ذلك مما يشق عليه أو يمنعه من كمال حضور القلب والنشاط، وأن يغتنم أوقات نشاطه، وقال اليوسي في وصيته : ولا يطلب منه الجواب إذا سأله عن أمر، بل يعرض عليه الأمر ويمسك

إِذْ هَذِهِ الأَشْيَا لَهُ مُمْتَهِنَهْ وَرَاعِ لِلدَّرْسِ زَمَاناً عَيْنَهْ
فَالْحَاصِلُ الطَّلَبُ لِلرِّضَا فَقَطْ مَعَ امْتِثَالِ الأَمْرِ وَاتِّقَا السُّخَطْ

فإن أجابه فذلك وإلا علم أن الجواب غير لائق. وقال في شرح الخاتمة : وليحذر التبسط على المعلم والإملال عليه بكثرة القراءة والسؤال، فإن التثقيل والإضجار يغير الأفهام ويحيل الطباع. قال ابن الصلاح : يخشى على فاعل ذلك أن يحرم الانتفاع. انتهى باختصار.

«إذ هذه الأشيا» المذكورة **«له ممتهنه»** منافية لتعظيمه. الامتهان ضد الصيانة. اليوسي : فإن أمره بأمر يخالف الأدب كالجلوس على فراشه أو التقدم بين يديه فقيل يراعي امتثال الأمر، وقيل الأدب، وهو أولى كما فعل الصديق رضي الله عنه حين قال : ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ. إلا أن يكون ثم جزم أو باعث لا يمكن خلافه. **«وراع»** أي احفظ وراقب **«للدرس زمانا عينه»** له. اليوسي : ولا يطرق على الشيخ ليدخل عليه، ولا يناده من وراء الحجرات، ولينتظر خروجه، وليصبر إن كان نائما حتى يستيقظ، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يأتي باب زيد ابن ثابت فيجده نائما فيقال له : ألا نوقظه لك ؟ فيقول : لا، وينتظر حتى يستيقظ، وربما أصابته الشمس وهو على ذلك ولا يبالي، ولا يقترح على الشيخ ما يشق عليه من مجلس غير معتاد أو وقت، أو تخصيص له بشيء من ذلك، أو بملاحظة، فربما فعل الشيخ ذلك مع استثقال، وفيه هلاكه، اللهم إلا أن يكون افتتحه بذلك ومَنَّ عليه به فليقبله شاكرا له. **«فالحاصل الطلب للرضا»** أي طلب رضى الشيخ **«فقط مع امتثال الأمر»** في غير معصيته جل **«واتقا السخط»** منه. اليوسي : الضابط مراعاة الأدب وحفظ القلب.

ولأبي عمر الداني رحمه الله تعالى :

فالتزم الإجلال والتوقيرا لمن يريك العلم مستنيرا
وكن له مبجلا معظما مرفعا لقدره مكرما
واخفض له الصوت ولا تضجره وما جنى عليك فاغتفره
فحقه من أعظم الحقوق وهجره من أعظم العقوق

مِنْ ذَاكَ تَعْظِيمُ الَّذِي لَهُ آنْتَسَبْ مُنْتسباً بِسَبَبٍ أَوْ بِـنَسَبْ

وفي الإحياء : قال علي رضي الله عنه : من حق العالم أن لا تكثر عليه في السؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ ثوبه إذا نهض، ولا تفشين له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى، ولا تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته.

واستثنى شارحه من الجلوس أمامه حالة التلقي.

وعن الشافعي رضي الله عنه : لا يطلب أحد هذا العلم بالمال وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة المعلم والتواضع في النفس أفلح.

اليوسي : المطلوب الخدمة بأي وجه أمكن مما يكون معه حفظ قلب الشيخ ومن أنف من خدمة المشائخ أو استحيا فهو محروم، وذكر في وصيته أن إقبال قلوب المشائخ على الإنسان علامة السعادة.

وقد قلت :

مِنْ أَرْبَعٍ لاَ يَأْنَفُ الشَّرِيفُ وَلَـوْ أَمِيراً قَـدْرُهُ مُنِيـفُ
مَجْـلِسُهُ يَقُـومُ مِنْـهُ لأَبِـهْ وَخِدْمَةٌ لِلضَّيْفِ إِن نُّزَلَ بِـهْ
وَخِدْمَـةٌ لِعَالِـمٍ يُعَلِّمُـهْ وَسُؤْلُهُ عَنِ آلَّذِي لاَ يَعْلَمُـهْ

«من ذاك» أي من تعظيم الشيخ **«تعظيم الذي له انتسب»** يعني تعلق به كائنا من كان، سواء كان **«منتسبا»** له **«بسبب أو بنسب»** اليوسي : من الآداب أن يعرف له حقه، ويشكر صنعه، والمنة التي أجراها الله تعالى على يده، ويعتقد أنه أبوه بالولادة الروحانية، وهي أفضل من الطينية، فلايزال مثنيا عليه ومستغفرا له، وداعيا له، ومسديا إليه غاية ما يمكن من الإحسان وساعيا له في مكافأته بكل وجه يمكن. وفي الحديث : (من أسدى إليكم معروفا فكافئوه) وكل ما يفعله في حضوره يفعله في غيبته وبعد موته، فينصره ويغضب له ويجاوب عنه من يذكره بسوء، وإن عجز قام عن المجلس، وكذا يعامل أولاده ومواليه وأقاربه وأحباءه

بَعْضُ ٱلأَجِلَّةِ يَقُومُ لِصَبِـي يَلْعَبُ تَعْظِيماً لِشَيْخِهِ الأَبِ
فَمَنْ تَأَذَّى الشَّيْخُ مِنْهُ يُحْرَمِ إِنَّ الْمُعَلِّمَ إِذَا لَمْ يُكْـرَمِ

وسائر من له به نسبة، وهذا شأن الصحبة والمحبة على الإطلاق. وقال أيضا : وإن أساء أحد على الشيخ فعلى الجماعة القيام بزجره، والانتصار للشيخ بالحق حاضرا كان أو غائبا حيا أو ميتا. «**بعض الأجلة**» قد كان «**يقوم**» من مجلس الدرس في خلاله أحيانا «**لصبي يلعب**» مع الصبيان في السكة «**تعظيما لشيخه الأب**» لذلك الصبي «**فمن تأذى الشيخ منه يحرم**» بركة العلم ولا ينتفع به إلا قليلا.

وفي ابن زكري عن رسالة القشيري أن من صحب شيخا ثم اعترض عليه ولو بقلبه فقد نقض عقدة الصحبة ووجبت عليه التوبة، على أن الشيوخ قالوا : عقوق الأستاذين لا توبة عنه. قال الشيخ زكرياء في شرحها : لا بمعنى أنه معصية لا يتوب الله على فاعلها، فإنه يقبل التوبة عن عباده في الكفر فما دونه، بل بمعنى أنه لا ينبغي للشيخ أن يعفو عنه، بأن لا يؤدبه بالكلية.

ولبعضهم :

ومن يقل لشيخه : هذا لِمَهْ ؟ لم ينتفـع منـه بما تعلمـه

«**إن المعلم إذا لم يكرم**» لا ينصح، قال :

إن المعلـم والطبـيب كـلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واصبر لجهلك إن جفوت معلما

وفي تبصرة الأنام عن العهود المحمدية : من أقل آفات سوء أدبك يا أخي مع الشيخ أنك تحرم فوائده، فإما بكتمها بغضا فيك، وأما أن لسانه يتعقد عن إيضاح المعاني لك فلا تتحصل من كلامه على شيء تعتمد عليه؛ عقوبة لك، فإذا جاءه شخص من المتأدبين معه انطلق لسانه لموضع صدقه وأدبه معه... إلى أن قال : فإن الواجب على كل طالب أن يحفظ نفسه من كل ما يغير خاطر شيخه في غيبته وحضوره. وقال قبل ذلك : قد بلغنا عن الإمام النووي أنه دعاه يوما شيخه الكامل الإربلي ليأكل فقال : يا سيدي أعفني من ذلك فإن لي عذرا شرعيا، فتركه، فسأله بعض إخوانه ما ذلك العذر ؟ فقال : أخاف أن تسبق عين شيخي

وَعَظِّمِ الْكِتَابَ بِٱلطُّهْرِ فَمِنْ ... تَعْظِيمِهِ تَعْظِيمُ عِلْمٍ قَدْ ضُمِنْ
وَصَارَ بَعْضٌ مِنْ ذَوِي الْمَهَارَهْ ... فِي ٱلْعِلْمِ إِذْ يَقْرَأُ بِٱلطَّهَارَهْ
فَالْعِلْمُ نُورٌ وَالْوُضُوءُ نُورُ ... فَٱلْعِلْمُ مِن نُورِ الْوُضُو يَنُورُ
مِنْ وَاجِبِ التَّعْظِيمِ لِلأَجِلاَّ ... أَنْ لاَ تَمُدَّ لِلْكِتَابِ الرِّجْلاَ

إلى لقمة فآكلها وأنا لا أشعر. وكان رضي الله عنه إذا خرج للدرس ليقرأ على شيخه يتصدق عنه في الطريق بما تيسر، ويقول : اللهم استر عني عيب معلمي حتى لا تقع عيني له على نقيصة، ولا يبلغني ذلك عنه أحد رضي الله عنه. اليوسي : من الأدب أن يصبر على جفوة الشيخ وشراسته إن كانت في خلقه، ولا يصده ذلك عن ملازمته، وحسن اعتقاده فيه، وإلا حرم ما عنده... إلى أن قال : وليتلطف في إدخال السرور على قلب الشيخ، وفي استعطاف قلبه، وفي مصالحته إن جهل أو غضب، ولينسب الذنب إلى نفسه، وليبالغ في الاعتذار والتوبة والاستغفار والانكسار، ولينسب كل نقيصة إلى نفسه، وكل فضيلة إلى شيخه، ولا يجادل ولا يماري، وليتحمل بحسن التحمل ما تجد النفس هنالك من الذل والهوان؛ رجاء ما يعقبه من العز والرفعة كما يتحمل ما يلقاه من الغربة والضيق وسوء الحال، فإن عاقبة ذلك كله خير. **«وعظم الكتاب»** الذي تطالعه وتقرأ منه **«بالطهر»** أي الوضوء **«فمن تعظيمه»** أي الكتاب **«تعظيم علم قد ضمن»** أي تكفل به. **«وصار بعض من ذوي المهاره في العلم»** أي الحذق به. مهر الشيء وفيه وبه كمنع. **«إذ يقرأ بالطهاره فالعلم نور والوضوء نور فالعلم من نور الوضو ينور»** أي يضيء، يعني أنه يزداد نوره؛ لأن النور إذا انضم إلى النور يتضاعف. **«من واجب التعظيم للأجلا»** أي عندهم **«أن لا تمد للكتاب الرجلا»** لأن فيه نوع استحقار، قال الهيتمي في فتاويه : قال الزركشي : ويحرم مد الرجل إلى شيء من القرآن وكتب العلم. وفي إطلاق الحرمة وقفة، بل الأوجه عدمها إذا لم يقصد بذلك ما ينافي تعظيمه، ثم قال : وإذا قلنا بحرمة المد فمحله ــ كما هو ظاهر ــ حيث قرب منه، بأن كان ينسب المد إليه، ويعد مخلا بتعظيمه.

وَكُتُبَ التَّفْسِيرِ ضَعْهَا فَوْقُ   فَهْيَ لَهَا عَلَى سِوَاهَا فَوْقُ
وَلاَ تَضَعْ عَلَى ٱلْكِتَابِ ٱلْمَحْبَرَهْ   أَوْ غَيْرَهَا خَشْيَةَ أَنْ تَسْتَحْقِرَهْ

«وكتب التفسير ضعها فوق» أي فوق سائر الكتب؛ تعظيما لها **«فهي لها على سواها فوق»** أي علو. فاقه فوقا وفواقا : علاه بالشرف.

اليوسي : من المهمات تعظيم الكتب واحترامها، فلا يضعها على الأرض ولا عند رجليه أو تحت رأسه، وهذا المعنى تشترك فيه كلها، وإن كانت تتفاوت في شدة الاعتناء فبعضها أكثر من بعض، ولو فرض ما في الكتاب غير حق فقد بقيت حرمة الورق والحروف، ولا يضع عليها شيئا غيرها إلا ما تصان به من فوق، وليحسن لها التجليد والأغشية من غير إسراف، ولا يصنع الدفة من الورق المكتوب فيه فإنه من الإهانة.

ونقله كنون ثم قال : وما ذكره من عدم جواز وضع الكتب على الأرض هو أحد قولين لمتأخري البجائيين والتونسيين جوازا وعدما.

وللعلامة محمد مولود بن أحمد فال رحمهما الله تعالى :

وينبغي جعلك بين الكتب   والأرض حائلا ورعي الأدب
في وضعهن باعتبار شرف   أنفسها وشرف المؤلف
واجعل إذا وضعتها الأعالي   على العليين على التوالي
فمصحف فخالص الأخبار   واعتبر الصحة فالبخاري
فوق صحيح مسلم لكثرة   قرآنه وفضله بالصحة
فكتب تفسير فشراح الخبر   فأصل دين فوق أصل الفقه قر
فالفقه فالنحو فصرف فالبيان   مع البديع والمعاني في مكان
ونحو ذلك وشعر العرب   ثم العروض تحت هذي الكتب

وذكر اليوسي أيضا كيفية أخرى قائلا : أعلى الكتب كتاب الله وهو المصحف وكذا أجزاؤه، ثم التفسير، ثم متن الحديث، ثم علوم الحديث، ثم الفقه، ثم الكلام، ثم أصول الفقه، ثم النحو والبيان وسائر علوم اللغة، ثم المعقول، وهكذا فانظره.

«ولا تضع على الكتاب المحبرة» بفتح الميم وكسرها وفتح الباء وحكي ضمها : وعاء المداد. **«أو»** أي ولا **«غيرها خشية أن تستحقره»** بوضع شيء عليه **«والبعض**

وَالْبَعْضُ وَضْعَهَا عَلَى الْكُتْبِ اسْتَجَازْ ... دُونَ احْتِقَارِهَا والأَوْلَى الإِحْتِرَازْ
جَوِّدْ وَلاَ تُقَرْمِطِ الْكِتَابَـهْ ... بِـأَنْ تُـرَى رَقِيقَـةً مُرْتَابَـهْ
فَمَنْ يُقَرْمِطْهَا إِذَا عَاشَ نَدِمْ ... فِي كِبَرٍ وَإِنْ يَكُنْ مَاتَ شُتِمْ
وَرَبِّـعِ الْكِتَـابَ لاَ تُـدَوِّرِ ... والْكُتْبَ بَعْضُهُمْ قَلاَ بِالأَحْمَرِ
وَعَظِّمِ الْعِلْمَ بِتَعْظِيمِكَ مَـنْ ... قَدْ شَارَكُواْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الحَسَنْ

وضعها» أي المحبرة **«على الكتب استجاز دون»** قصد **«احتقارها والاولى الاحتراز»** عن مثله؛ لما فيه من إيهام الاستخفاف. **«جوِّد»** كتابة الكتاب، أي اجعلها جيدة غير ردية، فهو من جملة التعظيم قيل : حسن الخط إحدى الفصاحتين وقيل : الخط الحسن يزيد الحق وضوحا. **«ولا تقرمط الكتابه»** والقرمطة رقة الكتابة، كما قال : **«بأن ترى رقيقة مرتابه»** أي يرتاب فيها؛ لكونها غير جلية. اليوسي : وخطوط العلماء تكون غالبا ردية؛ لاشتغالهم عن التصنع في الخط بما هو أهم، غير أنها تكون سالمة من اللحن متقنة مبينة فتكون نافعة، وإنما البلاء مع الرداءة والفساد.

«فمن يقرمطها إذا عاش ندم» على ذلك **«في كبر»** أي في وقت الكبر وضعف البصر، مع أن الرقيق من أسباب ضعفه، فلا ينبغي النظر فيه من أول وهلة، قاله اليوسي. الهيتمي : يتجنب دقيق الخط، فإنه لا ينتفع به عند الكبر. **«وإن يكن مات شتم»** أي شتمه من يقرأ منه. **«وربع الكتاب لا تدور»** فينبغي أن يكون تقطيعه مربعا لا مدورا **«والكتب بعضهم قلا»** أي كرهه **«بالأحمر»** لأنه صنيع الفلاسفة. وفي فتاوي الهيتمي : لابأس بكتابة نحو الترجمة أو المتن بالحمرة، أو بالرمز بها. اليوسي : لابأس بكتابة الأبواب والفصول وسائر التراجم بلون من حمرة أو صفرة أو خضرة، وكذلك كل ما يقع في خلال الكلام من تنبيه أو بحث أو سؤال أو تنكيت أو فائدة أو لطيفة. انظر بقية كلامه. **«وعظم العلم بتعظيمك من قد شاركوا في طلب العلم الحسن»** قال اليوسي : من آداب ساكن المدرسة أن يخدم أهلها فيعرف لهم حقهم، ويسعى في جبر خواطرهم ما أمكن، ويشكر محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، ويحترز عن إذايتهم بفعل أو قول... ثم

قال : وهذا كله غير مختص بأهل المدارس، فالعبد مطلوب منه التقوى وحسن الخلق أين ما كان. وقال أيضا : ينبغي له أن يراعي نوبته عند الشيخ، وهذا متأكد، لأنه من الحقوق، فلا يطلب السبق على من سبقه بالدرس أو بالسؤال، وذكر خبرا في ذلك ثم قال : فإن كان للمتأخر حاجة ضرورية قد علمها السابق أو أشار الشيخ بتقديمه لعذر تعين، وإن كان غريبا فيستحب للسابق عليه إيثاره على نفسه لمكان غربته، وإلا فلا؛ لأن المسارعة إلى العلم والاشتغال به قربة، وقد قالوا : الإيثار بالقرب مكروه.

وقال أيضا : ينبغي له كما يتأدب مع الشيخ أن يتأدب مع الحاضرين، ومع الرفقة كلها، فلا ينتهر أحدا منهم أو يشتمه أو يؤذيه، أو يجلس بين يديه أو فوقه، أو يستند عليه بمرفقه أو رأسه، وليوقر أكابر أهل المجلس وأفاضله أكثر.

وينبغي لأهل المجلس أن يرحبوا بالوارد ويفسحوا له ويكرموه بما ينبغي لمثله، وينبغي للوارد إذا فسح له أن يضم جناحيه، ولا يضيق على الناس. وقال أيضا : ينبغي لكل من الطلبة أن ينصح إخوانه ويحبهم ويحب لهم الخير ويؤنسهم عن وحشة الغربة ودهشة الولوج في مضايق الفهوم، ويشاركهم فيما ظفر به، ولا يضن عليهم بفائدة حصلها، وقاعدة حررها، ويكون عونا لهم ما أمكنه في ذات الله تعالى، فبذلك يزكو علمه، ويصلح حاله، وتربح تجارته، وإلا لم يثبت له علم، وإن ثبت لم تكن له ثمرة، وقد جرب ذلك عند أهل العلم فصحَّ، وليحذر من المهالك الموبقات، وهي أن يحسدهم إرادة الامتياز عليهم، أو يفخر عليهم لنسبة التحصيل إلى عقله، ونسيان ربه الفتاح العليم، الذي امتن عليه بما حصل من غير حول منه ولا قوة. وفي الإحياء : وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها.. فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتوادد. وقال في التبيان : ومما يجب عليه وتتأكد الوصية به أن لا يحسد أحدا من رفقته أو غيرهم على فضيلةٍ رزقه الله إياها، وأن لا يعجب بنفسه بما خصه الله، وطريقه في نفي العجب أن يذكر نفسه أنه لم يحصل ما حصله بحوله وقوته، وإنما هو فضل من الله، وطريقه في نفي الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذه الفضيلة في هذا، فينبغي أن لا يعترض عليها، ولا يكره حكمة أرادها الله تعالى. انتهى باختصار.

ذَمُّ التَّمَلُّـقِ مِـنَ الْمَعْلُـومِ ... إلاَّ لَـدَى الطَّـلَبِ لِلْعُلُـومِ

فَيَنْبَغِـي تَمَلُّـقٌ لِلشُّرَكَـا ... وَالشَّيْخِ لِاسْتِفَادَةٍ لَنْ تُتْرَكَا

«ذم التملق» أي التودد والتلطف. المناوي : التملق الزيادة في التودد والتضرع فوق ما ينبغي؛ ليستخرج من الإنسان مراده. **«من المعلوم»** في جميع الأفعال والأحوال **«إلا لدى الطلب للعلوم»** ففي الخبر : (ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا في طلب العلم)(46) وفيه أيضا : (من غض صوته عند العلماء كان يوم القيامة من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى من أصحابي ولا خير في التملق والتواضع إلا ما كان في الله أو طلب العلم)(47) كما في شرح الإحياء. المناوي : قال الحليمي : الملق لغير المعلم من أفعال أهل الذلة والضعة، وما يزري بفاعله، ويدل على سقاطته، وقلة مقدار نفسه، وليس لأحد أن يهين نفسه، كما ليس لغيره أن يهينه. **«فينبغي»** لطالب العلم **«تملق للشركا»** في الطلب **«والشيخ لاستفادة»** أي لأجل نيل استفادة منهم **«لن تتركا»** بالتركيب أي لا يتركها الطالب، بل يحرص عليها. الماوردي : اعلم أن للمتعلم في زمان تعلمه تملقا وتذللا إن استعملهما غنم، وإن تركهما حرم؛ لأن التملق للعالم يظهر مكنون علمه، والتذلل له سبب لإدامة صبره، وبإظهار مكنونه تكون الفائدة، وباستدامة صبره يكون الإكثار.

وفي الإحياء : من تكبر المتعلم على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين، وهو عين الحماقة، فإن العلم سبب النجاة والسعادة، ومن يطلب مهربا من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل، وضراوة سباع النار بالجهال بالله أشد من ضراوة كل سبع، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها، ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائنا من كان.

وفي تبصرة الأنام : لا ينبغي للطالب أن يستنكف عن القراءة على أقرانه إذا حصلوا على العلم قبله، فإن مقصوده هو التحصيل من أي شخص كان، فإذا صار يتكبر على الأقران ويتخير لقراءته الكبار؛ لمجرد كبر سنهم فإن هذا لا يحصل

---

(46) الكامل لابن عدي.

(47) إتحاف.

لاَ تَسْتَمِعْ لِعِلْمٍ أَوْ لِحِكْمَهْ   إِلاَّ بِتَعْظِيمِهِمَا وَالْحُرْمَهْ
وَلَوْ سَمِعْتَ بَعْدَ أَلْفٍ مُكْمَلَهْ   كَلِمَةً وَاحِدَةً أَوْ مَسْأَلَهْ
إِنْ لَمْ يَكُ التَّعْظِيمُ بَعْدَ أَلْفِ   كَأَوَّلٍ فَالْعِلْمُ عَنْكَ مَنْفِي
وَلاَ تَكُنْ تَخْتَارُ فِي التَّعَلُّمِ   نَوْعاً بِلاَ مَشُورَةِ الْمُعَلِّمِ
بَلْ فَوِّضِ الأَمْرَ إِلَى مُجَرِّبِهْ   فَكُلُّ شَخْصٍ عَرَفَ اللاَّئِقَ بِهْ

على مراد ــ وإن طال منه الكد والاجتهاد ــ وفي القراءة في المبدإ على الصغار في السن فائدة لا توجد في غيرهم غالبا وهي القدرة على مباحثتهم وتكرار السؤال عليهم، بخلاف الكبار فإنه ربما يمنع الطالب من ذلك معهم هيبتهم وعلو منصبهم وهذا مشاهد بالعيان، فما رأينا من يتحاشى عن القراءة على الأقران إلا وباء بالمنع والحرمان. **«لا تستمع لعلم أو لحكمه»** تقدم تفسيرها **«إلا بتعظيمهما والحرمه»** أي احترامهما **«ولو»** إغيائية **«سمعت بعد ألف مكمله كلمة واحدة أو مسأله»** فقد قيل إنه **«إن لم يك التعظيم»** منك **«بعد ألف»** مرة **«كأول»** أي كتعظيمك في أول مرة **«فالعلم عنك منفي»** لست بأهله؛ إذ هو معظم في كل حال ووقت، لا تفاوت بين وقت ووقت، فمن لم يعظمه في بعض الأحيان فليس بأهله؛ لأن من وجد لذته وعلم قدره ورتبته لا يستطيع أن لا يعظمه. **«ولا تكن تختار في التعلم نوعا»** من العلم بنفسك **«بلا مشورة المعلم بل فوض الأمر إلى مجربه»** وهو الأستاذ الذي حصلت له التجارب في اختيار نوع العلم **«فكل شخص»** من أفراد الطالبين **«عرف اللائق به»** أي بطبيعته من أنواع العلوم؛ لأن الطبائع مختلفة، فمنها ما يليق به الفقه ومنها ما تليق به العربية، فلابد من أستاذ يعلم طبيعة المتعلم وما يليق بها. قال في الإحياء : ومهما أشار إليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه : إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها. اليوسي : وليقدم فهم الشيخ على فهمه ورأيه على رأيه كما قال الصحابي : اتهموا رأيكم، ومتى أعلمه الشيخ بفائدة أو حكمة أو لطيفة من دقائق الأدب كان علمها فلا يظهر أنه كان عالما بها، وليشكر شكر من لم يعلم، اللهم إلا أن يتعلق غرض الشيخ بشهادته بها مثلا فليذكر ذلك والضابط السعي في حفظ قلب الشيخ، وفي استجلاب أمثالها منه

طَلَبَةُ الْعِلْمِ بِأَوَّلِ الزَّمَنْ   قَدْ فَوَّضُوا فَبَلَغُواْ مِنْهُ الْقُنَنْ
كُنْ مِنْهُ قَدْرَ الْقَوْسِ فِي التَّعْلِيمِ   فَإِنَّهُ أَقْرَبُ لِلتَّعْظِيمِ

على الدوام، وليراع حق الله في ذلك عليه لا مجرد الانتفاع. **«طلبة العلم بأول الزمن قد فوضوا»** أمورهم في التعلم إلى أستاذهم **«فبلغوا منه القنن»** أي أعاليه جمع قنة بالضم وهي أعلى كل شيء كالقلة. يعني أنهم وصلوا إلى مقصودهم ومرادهم منه. اليوسي : ينبغي للمتعلم أن ينظر في حال نفسه عند إقدامه على التعلم، فإن رأى من نفسه قابلية للعلوم كلها فليُلَجِّجْ في بحارها على الترتيب السابق، وليأخذ ذلك من معلمه ملقيا إليه الاستسلام؛ ليقوده قودا سهلا صالحا، وإن رأى في نفسه قابلية لفن دون آخر فليترك الذي لا يقبله وليشتغل بما يجد من نفسه عليه إقبالا ومن قلبه إدراكا... إلى أن قال : ومتى أشار إليه معلمه بأن افعل أو اترك قلده، فلا يحسن الظن بنفسه ويتهم شيخه بالغلط فذلك الحرمان. **«كن منه»** أي من الشيخ **«قدر»** طول **«القوس في»** حال **«التعليم»** منه لك، فلا تجلس قريبا منه بغير ضرورة **«فإنه أقرب للتعظيم»** مما دون القوس.

وفي المدخل أن السلف كانوا لا يبعدون، بل تمس ثياب الطلبة ثياب المدرس لقربهم منه، والخير كله في الاتباع.

قال في تبصرة الأنام : من آداب طالب العلم في مجلس الدرس أن لا يجلس وراء الشيخ، ولا متحرفا عنه جدا؛ لئلا يحوجه إلى الالتفات إليه عند التفهيم كما استنبط ذلك العلماء من حديث سؤال جبريل للنبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان.. قال الراوي فأسند ركبتيه إلى ركبتيه إلخ، وأيضا قضت الحكمة بأن في مقابلة الشيخ سرعة الفهم لما يخرج من فمه.

وقد وقعت لليوسي في ذلك حكاية عجيبة ذكرها في قانونه فانظرها.

الشبرخيتي : في الحديث إشارة إلى أنه ينبغي للمتعلم الجلوس بين يدي شيخه، لا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه إن اتسع الموضع، لكن لا يقرب جدا بحيث يسند ركبتيه إليه كما هنا؛ لأنه إنما فعل ذلك هنا جريا على ما بينهما قبل من مزيد الود والأنس حين يلقي عليه الوحي. اليوسي : إن تأتى له القرب جدا وأمن من

وَحِدْ عَنِ الذَّمِيمِ مِنْ أَخْلاَقِ فَهْيَ كِلاَبٌ لاَ لَهَا تُلاَقِ
بَيْتُ الْكِلاَبِ مِنْهُ يَنْفِرُ الْمَلَكْ وَالْعِلْمُ بِالإِلْقَا مِنَ الْمَلَكِ لَكْ
فَذُو رَدِيِّ الْخُلْقِ مِنْ عِلْمٍ بَرِي ثُمَّ خُصُوصاً حِدْ عَنِ التَّكَبُّرِ

مضايقة الشيخ فليقرب كما في وصية لقمان حيث قال : وزاحم العلماء بركبتيك.. وإلا وهو الأغلب فليتوسط فلا يزاحم حتى يثقل أو يمس الشيخ أو سجادته أو ثوبه، ولا يبعد حتى لا ينتفع. **«وحد عن الذميم»** أي المذموم شرعا **«من أخلاق»** كغضب وشهوة وحقد وحسد وكبر وعجب وغل وغش... **«فهي كلاب»** معنوية أي مشبهة بحسب المعنى بالكلاب الصورية، فكما أن الكلاب تؤذي من يقاربها فكذلك هذه الأخلاق **«لا لها تلاق»** فالقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ومحل استقرارهم، و**«بيت الكلاب منه ينفر الملك»** فقد قال عليه السلام : (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة)[48] المناوي المراد بالملائكة ملائكة الرحمة والبركة والطائفون على العباد للزيارة واستماع الذكر، لا الكتبة فإنهم لا يفارقون المكلف، فهو عام أريد به الخصوص. **«والعلم»** نوره إنما يقذفه الله تعالى في القلب **«بـ»**ـواسطة **«الإلقا من الملك لك»** قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلاَّ وَحْياً... الآية﴾[49] فهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب إنما تتولاها الملائكة الموكلون بها، وهم المقدسون المطهرون المبرؤون عن الصفات المذمومات، فلا يلاحظون إلا طيبا، ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا. انظر الإحياء. **«فذو رديّ الخلق»** أي فصاحب الخلق الردي لا يملك نفائس العلوم، بل هو **«من علم بري»** أي العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة قال ابن مسعود : ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يقذف في القلب. وقال بعضهم : إنما العلم الخشية إذ قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾[50]. **«ثم خصوصا»** مفعول مطلق أي أخص خصوصا **«حد عن التكبر»** والتأمر على المعلم، بل تلقي إليه زمام أمرك بالكلية، وتذعن

---

(48) متفق عليه.

(49) الشورى 48.

(50) فاطر 28.

فَالْعِلْمُ حَرْبٌ لِأَخِي التَّعَالِي   كَالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي
بِالْجَدِّ لَا بِالْجِدِّ كُلُّ مَجْدِ   وَالْجَدُّ دُونَ الْجِدِّ غَيْرُ مُجْدِ

لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق **«فالعلم حرب لأخي التعالي»** أي التكبر والاختيال، فمعه لا يحصل العلم، بل إذا صادفه يزيله ويقلعه **«كالسيل حرب للمكان العالي»** ولفظ الشاعر :

العلم حربٌ للفتى المتعالي   كالسيل حربٌ للمكان العالي

أي أن العلم عدو المتكبر حرب عليه لا يجتمعان معا. والمتعالي هو المفتخر المتكبر بما عنده، كما أن السيل عدو المكان المرتفع المحدودب فإنه لم يزل بأمواجه وهيجانه حتى يوطئه، وذلك مشاهد، قاله شارح الإحياء، فلا ينال العلم إلا بالتواضع والتملق والانقياد للمعلم وإلقاء السمع. قال في التبيان : ينبغي أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه ــ وإن كان أصغر منه سنا وأقل شهرة ونسبا وصلاحا وغير ذلك ــ ويتواضع للعلم فبتواضعه يدركه **«بالجد»** بالفتح البخت والحظ والرزق **«لا بالجد»** بالكسر أي الجهد **«كل مجد»** أي كرم وشرف. يعني أن كل مجد وعظمة بفضل الله تعالى وتقديره، لا بالجد والسعي، ولكن لابد من اقتران الطلب والسعي حتى يظهر فضل الله تعالى على جري عادة الله تعالى كما قال **«والجد دون الجد»** ضبطهما ومعناهما على الترتيب السابق **«غير مجد»** يعني أنه لا يكون الجد بلا اقتران الجهد والسعي مجديا، قال :

بِجَد لا بِجِدٍّ كُلُّ مجد   فهل جد بلا جد بمُجْدِ ؟
فكم عبد يقوم مقام حر   وكم حر يقوم مقام عبدِ !

يعني أن كثيرا من العبيد يقومون مقام حر في الرتبة والشرف بفضله تعالى المقارن بالجهد والسعي، وكثير من الأحرار يقوم مقام عبد في الدناءة والرذالة؛ لعدم جده وسعيه المستتبع لفضل الله تعالى. ابن يونس : والعلم لا يأتي إلا بالعناية والمباحثة والملازمة مع هداية الله تعالى وتيسيره.

فصل في الجد والمواظبة والهمة

لاَبُدَّ لِلطَّالِبِ مِنْ مُدَاوَمَهْ ... وَهِمَّةٍ وَالْجِدِّ وَالْمُلاَزَمَهْ
قَالَ تَعَلَى وَالَّذِينَ جَاهَدُوا ... وَهْوَ إِشَارَةٌ لِذَا تُشَاهِدُ
مَنْ قَرَعَ الْبَابَ وَلَجَّ وَلَجَا ... وَطَالِبٌ جَدَّ يَنَالُ مَا ارْتَجَى

«فصل في الجد والمواظبة والهمة : **لابد للطالب»** للعلم **«من مداومه»** للطلب **«وهمة والجد والملازمه قال تعالى** : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[51] (وهو) أي قوله تعالى فيه **«إشارة لذا»** أي للزوم هذه المعاني لطالب العلم **«تشاهد»** فمعناه على قول الفضيل : والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم به، قال ابن رشد : لا يحصل العلم إلا بالعناية والملازمة والبحث والنصب والصبر على الطلب كما حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ ٱللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾[52] وأنه ﴿قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا... الآية﴾[53] وكان سحنون إذا حث على الصبر في طلب العلم يتمثل بقول القائل :

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وذكر اليوسي من آداب المتعلم أن يبالغ في الاجتهاد جهد الطاقة وهو جماع الأمر، فقد قيل : العلم إن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإن أعطيته بعضك لم يعطك شيئا. وقيل لا يستطاع العلم براحة الجسم. وأنشد فقهاؤنا في شأن المدونة :

قالت مسائل سحنون لقارئها ... بالدرس[54] يدرك مني كل ما استترا
لا يدرك العلم بطال ولا كسل ... ولا ملول ولا من يألف البشرا

«من قرع الباب» أي باب المقصود **«ولج»** في القرع أي تمادى عليه **«ولجا»**

---

(51) العنكبوت 69.

(52) الكهف 68.

(53) الكهف 61.

(54) في نسخة بالكد يدرك... إلخ.

وَالْمُتَمَنِّي قَدْرَ مَا تَعَنَّى فَإِنَّهُ يَنَالُ مَا تَمَنَّى
وَقِيلَ يُحْتَاجُ لَدَى التَّعَلُّمِ لِجِدِّ شَيْخٍ وَأَبٍ مُعَلِّمِ
وَأَنْشَدُوا قَوْلَ الإِمَامِ الشَّافِعِي الْجِدُّ يُدْنِي كُلَّ أَمْرٍ شَاسِعِ
وَلَمْ يَكُ اكْتِسَابُ مَالٍ دُونَا مَشَقَّةٍ وَالْعِلْمُ لَيْسَ الدُّونَا
وَلَيْسَ مِنْ مَعَائِبِ الأَنَامِ كَنَقْصِ قَادِرٍ عَلَى التَّمَامِ

أي دخل فيه ووصل إلى مقصوده «وطالب» لشيء «جد» أي اجتهد وسعى جميلا «ينال ما ارتجى والمتمني قدر ما تعنى» أي بقدر عنائه أي تعبه «فإنه ينال ما تمنى وقيل يحتاج لدى التعلم» والتفقه «لجد» ثلاثة : لجد «شيخ و» لجد «أب» إذا كان حيا، فلابد من جده وسعيه في تحصيل ابنه العلم، ولجد «معلم» بصيغة اسم المفعول أي المتعلم.

فائدة : في المعيار : أجاب ابن سحنون أبا كان ابنه يطلب العلم عن قوله له : أنا أتولى العمل بنفسي ولا أشغله عما هو فيه : أجرك في ذلك أعظم من الحج والرباط والجهاد.

وأنشدوا قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى **«الجد يدني كل أمر شاسع»** :

الجد يدني كل أمر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق
وأحق خلق الله بالهمِّ آمرؤ ذو همة يبلى بعيش ضيِّق
ومن الدليل على القضاء وحكمه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق
لكن من رزق الحجا حرم الغنى ضدان يفترقان أيّ تفرق

«ولم يك اكتساب مال دونا مشقة» مع كونه رذيلا خسيسا **«والعلم ليس الدونا»** أي الردي، بل هو أعلى الأمور وأشرفها، فإذا كان اكتساب المال لا يمكن بدون مشقة فكيف يحصل العلم بلا مشقة ؟ وفي البيت تلميح لقول الشاعر :

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرا بغير عناء والجنون فنون !
وليس اكتساب المال دون مشقة تحملها فالعلم كيف يكون ؟

«وليس من معائب الأنام كنقص قادر على التمام» قال أبو الطيب :

ولم أر من عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

وَلَازِمِ السَّهَرَ فِي اللَّيَالِـي	بِقَدْرِ كَدٍّ تُكْسَبُ الْمَعَالِـي
مَنْ شَاءَ أَنْ يَحْوِيَ جُمْلَةَ الْأَمَلْ	فَلْيَتَّخِذْ فِي دَرْكِهِ اللَّيْلَ جَمَلْ
وَمَنْ يَكُنْ بِاللَّيْلِ ذَا إِسْهَارِ	فَقَلْبُـهُ يَفْـرَحُ بِالنَّهَـارِ
وَاظِبْ عَلَى الدَّرْسِ مَعَ التَّكْرَارِ	فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَفِي الْأَسْحَارِ
بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ وَوَقْتَ السَّحَرِ	وَقْتٌ مُبَارَكٌ فَبِالْعِلْمِ حَرِي

«ولازم» أيها الطالب **«السهر في الليالي بقدر كد تكسب المعالي»** أي تكتسب المقامات العالية، قال الشافعي :

بقدر الكـد تكـتسب المعـالي	ومن طلب العلا سهر الليـالي
ومن رام العلى من غير كـد	أضاع العمر في طـلب المحال
تـروم العــز ثم تنـام ليـلا	يغوص البحر من طلب اللئـالي

«من شاء أن يحوي جملة الأمل» أي المقصود **«فليتخذ في دركه»** أي في نيل الأمل **«الليل جمل»** قال الزرنوجي :

من شاء أن يحتوي آماله جملا	فليتخـذ ليلـه في دركهـا جملا
أقلل طعامك كي تحظى به سهرا	إن شئت يا صاحبي أن تبلغ الكملا

«ومن يكن بالليل ذا إسهار» لنفسه **«فقلبه يفرح»** يصير ذا فرح **«بالنهار»** لأنه حصل في الليل ما لابد من تحصيله في النهار، فإذا جاء النهار فرح بما حصل في الليل كأنه وجده مجانا. **«واظب»** أي داوم **«على الدرس مع التكرار في أول الليل وفي الأسحار»** فإن ما **«بين العشاءين ووقت السحر»** أي قبيل الفجر الصادق **«وقت مبارك فبالعلم حري»** اليوسي : من آداب المتعلم أن يراعي أوقاته ويشتغل في كل وقت بما يناسبه، قالوا : وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الإبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل. وقيل أجود أوقات الحفظ الأسحار ثم وسط النهار ثم بالغداة، وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار، ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع، وهذا ما لم يكن شاغلا، فإن المطلوب الفراغ من الشواغل والبعد عنها، ولذا كان الحفظ في الغرف والخلوات أحسن منه في

يَا طَالِباً لِلْعِلْمِ بَاشِرِ الْوَرَعْ وَجَنِّبِ الْمَنَامَ وَاحْذَرِ الشِّبَعْ
عَصْرُ الْحَدَاثَةِ اغْتَنِمْهُ لِلْعُلُومْ قَالَ بِقَدْرِ الْكَدِّ تُعْطَى مَا تَرُومْ

شوارع الطرق وبحضرة النبات وسائر الملهيات. **«يا طالبا للعلم باشر»** أي الزم **«الورع وجنب المنام واحذر الشبع»** فهما مانعان للتحصيل، قال :

يا طالب العلم باشر الورعا وجنب النوم واحذر الشبعا
داوم على الدرس لا تفارقه فالعلم بالدرس قام وارتفعا

يعني حصل. وزاد ابن زكري : قال سهل بن عبد الله : لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة.

«عصر الحداثة» وعنفوان الشباب أي أوله **«اغتنمه للعلوم»** لأن الحواس والقوى المدركة قوية في زمان الشباب، فإذا فات ضعفت القوى والحواس، فلا يقدر على تحصيل العلوم والمعارف، ويروى عن لقمان أنه قال لابنه : يابني ابتغ العلم صغيرا، فإن ابتغاء العلم يشق على الكبير. ويقال : من أدَّب ولده أرغم أنف عدوه. وقال الشاعر :

قد ينفع الأدب الأحداث في مهل وليس ينفع بعد الكبرة الأدب
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخُشُبُ

وقال آخر :

أراني أنسى ما تعلمت في الكبر ولست بناس ما تعلمت في الصغر
وما العلم إلا بالتعلم في الصبا وما الحلم إلا بالتحلم في الكبرْ
ولو فلق القلب المعلم في الصبا لألفي فيه العلم كالنقش في الحجرْ
وما العلم بعد الشيب إلا تعسفا إذا كَلَّ قلبُ المرء والسمع والبصرْ
وما المرء إلا اثنان: عقل ومنطق فمن فاته هذا وهذا فقد دمرْ

وقال آخر :

تعلم يا فتى والعود رطب وجسمك لين والطبع قابلْ
فإنّ الجهل خافض كل عالٍ وإن العلم رافع كل سافلْ
وحسبك يا فتى شرفا وعزا سكوت الحاضرين وأنت قائلْ

قال في سنن المهتدين : وانظر إذا كانت المزية للإتقان والفهم فيلتحق حينئذٍ الأحداث بمراتب الكهول، ألا ترى أن عمر رضي الله عنه كان يقدم ابن عباس في الشورى على صغر سنه ؟ وقد رشح هذا الإمام الماوردي، ونقل : عليكم بمشاورة الأحداث فإنهم قد ينتجون رَأيا لم يُبْلِه طول القدم، ولا استولت عليه رطوبة الهرم.

قال ابن عباس : ما آتى الله عبده علما إلا شابا، والخير كله في الشباب، ثم تلا قوله تعالى : ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾(55) وقوله : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾(56) وقال سبحنه : ﴿وَآتَيْنٰهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾(57) وولي يحيى ابن أكثم القضاء ابن إحدى وعشرين سنة فأراد أن يخجله رجل بصغر سنه فقال له : كم سن القاضي أيده الله ؟ فقال : مثل سن عتاب ابن أسيد حين ولآَّهُ رسول الله ﷺ إمارة مكة وقضاءها !. **«قال بقدر الكدِّ تعطى ما تروم»**

بقدر الكد تعطى ما تـرومُ فمن رام المنى ليـلا يقـومُ
وأيـام الحداثـة فاغتنمهـا ألا إن الحداثـة لا تـدومُ

وأيام الحداثة من عشرين إلى أربعين، فالتعلم في الصغر كالنقش في الحجر، والتعلم في الكبر كالكتابة على الماء، ولكن ذلك لا ينافي التعلم ممن كان كبيرا ولم يعلم العلم، فقد سئل مالك رحمه الله تعالى : متى يقبح التعلم ؟ قال : متى يحسن الجهل. وقال أيضا : إن التعلم من المهد إلى اللحد. لكن في المدخل أنهم كانوا إذا بلغ أحدهم الأربعين طوى الفراش وانعزل عن الناس وتبتل للعبادة وترك الاشتغال بالعلم. وقد قلت :

قَدْ قَالَ مَالِكٌ إِمَامُ الْبَـرَرَهْ كَمَا حَكَاهُ الْقُرْطُبِي فِي التَّذْكِرَهْ
أَدْرَكْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ يَطْلُبُونَـا دُنْيَـا وَلِلنَّـاسِ يُخَالِطُونَـا
حَتَّى إِذَا أَحَـدُ هَـؤُلاَ وَصَلْ لِسِنِّ الارْبَعِينَ لِلنَّـاسِ آعْتَـزَلْ

---

(55) الأنبياء 60.
(56) الكهف 13.
(57) مريم 11.

لاَ تُضْعِفِ النَّفْسَ وَجَهْدَهَا دَعَهْ   حَتَّى تُرَى عَنْ عَمَلٍ مُنْقَطِعَهْ
فَالرِّفْقَ فِي الطَّلَبِ كُنْ مُسْتَعْمِلاَ   وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ حَالٍ أُعْمِلاَ
لِذَاكَ قَالَ: إِنَّ ذَا الدِّينَ مَتِينْ   فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقِ الأَمِينْ
وَلاَ تُبَغِّضِ الْعِبَادَةَ إِلَى   نَفْسِكَ فَالْمُنْبَتُّ لاَ أَرْضاً وَلاَ

قال في التبيان في آداب المتعلم : وينبغي أن يأخذ نفسه بالاجتهاد في التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشاغلات قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة، فقد قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا. معناه اجتهدوا في كمال أهليتكم وأنتم أتباع قبل أن تصيروا سادة متبوعين، امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم وهذا معنى قول الشافعي رضي الله عنه : تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه. **«لا تضعف النفس وجهدها دعه»** بحذف نون التوكيد الخفيفة أي لا تجعلها ذات جهد ومشقة **«حتى ترى عن عمل منقطعه فالرفق في الطلب كن مستعملا»** فلابد من سلوك القصد وأخذ العلم عن تطاول الأيام **«وهو»** أي الرفق **«أصل»** عظيم **«كل حال»** أي في جميع الأشياء **«أعملا»** روى الشيخان عن عائشة (إن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله) أي في أمر الدين وأمر الدنيا حتى في معاملة المرء نفسه كما في المناوي. **«لذاك قال : إن ذا الدين»** أي دين الإسلام، ولفظ الحديث (ألا إن هذا الدين **«متين»** محكم **«فأوغلوا فيه برفق»**)[58] أي اذهبوا وبالغوا **«الأمين»** عليه السلام، فاعل قال. **«ولا تبغض العبادة إلى نفسك»** بإتعابها **«فالمنبتُّ»** أي الذي انقطع قوة ظهره ومركبه بإتعابه وإيلامه **«لا أرضا»** قطع بالسير **«ولا»** ظهرا أبقى أي لا أبقى مركبه أي أهلكه، وهذا تمثيل فالنفس مركب ركبته في السير إلى الله تعالى، وإذا أتعبته بكثرة الرياضات والعبادات، وأعييته، ينقطع عن السير، بل يهلك؛ لعدم تحمله، فلابد من الرفق والتدريج؛ كي لا يضعف مركبك، فتصل

---

(58) البيهقي في السنن.

وَالنَّفْسُ فَلْتَرْفُقْ بِهَا مَطِيَّةْ ثُمَّتَ كُنْ ذَا هِمَّةٍ عَلِيَّةْ
لِلْمَرْءِ بِالْهِمَّةِ قَالُواْ طَيْــرُ كَمَا يَطِيرُ بِالْجَنَاحِ الطَّيْــرُ
لِلْمُتَنَبِّي ذِي الذَّكَا وَالْحَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ بِقَدْرِ الْعَــزْمِ
وَالرَّأْسُ فِي تَحْصِيلِ الأَشْيَاءِ الْهِمَمْ وَالْجِدُّ فَالْحِفْظُ بِهٰذَيْنِ أَتَــمْ

إلى مقصودك. **«والنفس فلترفق بها مطيه»** أي مركبٌ لك، قال عليه السلام : (نفسك مطيتك فارفق بها) اليوسي : من عوائق المتعلم التغالي في التحصيل والتشدد المفرط في الطلب، فإنه من أسباب الانقطاع، وفي الحديث : (إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى)[59] فالمطلوب لطالب العلم أن يستغرق أوقاته في الطلب، ويدع البطالة، ولابد أن يستعين على ذلك بقطع العلائق بأن يرتحل عنها ويبقى أعزب، ويبعد عن الخلطة، ويخفف المعدة ونحو ذلك، وبإراحة نفسه أحيانا إذا ضجرت، وتوفيرها إذا كلت، وتنشيطها إذا ملت، وإنما هي كالدابّة يسوسها، ولم يزل العلماء يوصون طالب العلم بالمواظبة عليه والدوام من غير إكثار ممل، وقال بعض السلف : خذ العلم مع الأيام والليالي ولا تكابره فمن رام أخذه جملة ذهب عنه جملة. **«ثمت كن ذا همّة عليه»** في العلم أي ذا قصد عال. **«للمرء بالهمة قالوا طير»** مصدر طار، فالمرء يطير أي يرتقي في العلم بهمته وسعيه الجميل **«كما يطير بالجناح الطير للمتنبي ذي الذكا والحزم»** أي الرأي الوثيق **«تاتي العزائم»** أي المقاصد **«بقدر»** أهل **«العزم»** ومرتبته فيه، فمن كان عزمه في المرتبة العالية كانت مقاصده أتم وأكمل، قال :

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائمُ

«والرأس في تحصيل الاشياء» أي رأس آلات التحصيل **«الهمم»** جمع همة بمعنى القصد الكامل **«والجد»** أي الاجتهاد **«فالحفظ بهذين أتم»** فأمّا من كانت له همة

---

(59) البيهقي في السنن.

وَالْحُكَمَا قَالُوا لِذِي الْقَرْنَيْنِ سَافِرْ تَفُزْ بِالْمُلْكِ فِي الدَّارَيْنِ
وَكَانَ شَاوَرَ لَدَى قَصْدِ السَّفَرْ لِمُلْكِ دُنْيَا فَرَءَاهُ مُحْتَقَرْ
وَفِي حَدِيثِ الْمُصْطَفَى الْمَأْثُورِ حُبُّ الْعَلِي مَعَالِيَ الأُمُورِ
عَنِ الْبَلاَدَةِ أَبُو يُوسُفَ قَدْ أَخْرَجَهُ الدَّرْسُ الْمُدَامُ فَاتَّقَدْ
إِيَّاكَ والْكَسَلَ فَهْوَ الشُّؤْمُ لاَ يَعُقْكَ وَاحْفَظْ قَوْلَهُ: يَا نَفْسِ لاَ

عالية ولم يكن له جد أو العكس فلا يحصل له إلا علم قليل؛ لفقدان أحد شرطي التحصيل.

«والحكما قالوا لذي القرنين» وقد اختلف في نبوته، مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه **«سافر تفز بالملك في الدارين»** بالجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى **«و»** قد **«كان شاور»**هم **«لدى قصد السفر لملك دنيا فرءاه»** أي ملك الدنيا أمرا **«محتقر»** وذلك أنه لما أراد أن يسافر ليستولي على المشرق والمغرب شاور الحكماء، وقال : كيف أسافر لهذا القدر من الملك ؟ فإن الدنيا قليلة فانية، وملك الدنيا أمر حقير، فليس هذا من علو الهمة، فقالوا له : سافر ليحصل لك ملك الدنيا والآخرة، فقال : هذا أحسن، فبهمته العالية حصل له ملك الدنيا شرقا وغربا، فعلم من هذا أنه لابد في تحصيل الأشياء من الجهد والهمة العالية. **«وفي حديث المصطفى المأثور»** المروي عنه عليه السلام **«حب العلي معالي الأمور»** ولفظه : (إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها)[60] أي يحب معالي الأمور الدينية، أي يرضى عن صاحبها، وعلوُّها باتصافها بالثبات والدوام والإخلاص، ويكره سفسافها أي لا يرضى عن فاعله، والسفساف الردي من كل شيء والأمر الحقير. **«عن البلادة أبو يوسف قد أخرجه الدرس المدام»** أي المواظب عليه **«فاتقد»** فكره وفهمه. **«إياك والكسل فهو الشؤم»** ضد اليمن، وهو الآفة العظيمة التي ينبعث عنها أنواع الضرر **«لا يعقك»** عن التحصيل، عاقه : منعه. **«واحفظ قوله»** متمثلا به **«يا نفس»** بالكسر لأنه مضاف للياء واكتفي به عنها. **«لا»** قال :

---

(60) البيهقي والحاكم والطبراني.

وَكَسَلٌ مِنْ قِلَّةِ التَّأَمُّـلِ فِي فَضْلِ عِلْمٍ فَتَأَمَّلْ تَكْمُلِ
فَالْعِلْمُ يَبْقَى وَحُطَامُ الـدَّارِ يَفْنَى رَضِينَا قِسْمَةَ الْجَبَّارِ

يا نفس يا نفس لا ترخي عن العملِ في البر والعدل والإحسان في مهلِ
وكل ذي عمل في الخير مغتبَط وفي بلاء وشؤم كل ذي كسلِ

«وكسل من» أجل «قلة التأمل في فضل علم» وفي مناقبه «فتأمل» في فضائله «تكمل فالعلم يبقى» ببقاء المعلومات بعد فناء صاحبه «وحطام الدار» هذه «يفنى» لأن الدنيا وما فيها فان كما قال علي كرم الله وجهه : «رضينا قسمة الجبار» :

رضينا قسمة الجبار فينا لنا علم وللأعداء مالُ
فإن المال يفنى عن قريب وإن العلم يبقى لا يزالُ

وقد قال علي أيضا : العلم أفضل من المال بسبعة أوجه : أولها : العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة، والثاني : العلم لا ينقص بالنفقة والمال ينقص، والثالث : المال يحتاج إلى الحافظ والعلم يحفظ صاحبه، والرابع : إذا مات الرجل يبقى ماله والعلم يدخل مع صاحبه قبره، والخامس : المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لا يحصل إلا للمؤمن، والسادس : جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمر دينهم ولا يحتاجون إلى صاحب المال، السابع : العلم يقوي الرجل على المرور على الصراط والمال يمنعه. ولبعض أهل الأدب :

إذا لم يكن مر السنين مترجما عن الفضل في الإنسان سميته طفلا
وما تنفع الأعوام حين تعدها ولم تستفد فيهن علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا إلى كل ذي جهل كأن به جهلا

وقال آخر :

تعلم إذا ما كنت لست بعالم فليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن صغير القوم والعلم عنده كبير إذا التفت عليه المحافل
وإن كبير القوم إن كان جاهلا صغيرٌ إذا ردت إليه المسائل

ولابن دريد :

جهلت فعاديت العلوم وأهلها كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

وَالْعِلْمُ ذِكْرٌ حَسَنٌ لِخِلِّهِ وَالْجَهْلُ قَبْلَ الْمَوْتِ مَوْتُ أَهْلِهِ
مِنْ بَلْغَمٍ قَدْ يَتَوَلَّدُ الْكَسَلْ وَمِنْ رُطُوبَاتٍ لِكَثْرَةِ الأُكُلْ
وَكَثْرَةُ الْبَلْغَمِ لِلإِنْسَانِ قَالُوا تُؤَدِّي كَثْرَةَ النِّسْيَانِ
وَكَثْرَةُ الْبَلْغَمِ مِنْ شُرْبٍ لِمَا وَالشُّرْبُ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلٍ عُلِمَا
وَالْبَلْغَمُ السِّوَاكُ قَدْ أَزَاحَهْ وَزَادَ فِي الْحِفْظِ وَفِي الْفَصَاحَهْ

«والعلم» النافع **«ذكر حسن لخله»** يعني لصاحبه، ويبقى ذلك بعد وفاته، فبقاء الذكر بعدها حياة أبدية، قال :

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو يمشي على الثرى يعد من الأحياء وهو عديم

اليوسي : قال الحكماء : عِلْمُ الرجل ولده المخلف، ولاشك أنه هو ذكره، وشرفه بعده، ولله در القائل :

يقولون ذكر المرء يبقى بنسله وليس له ذكر إذا لم يكن نسل
فقلت لهم نسلي بدائع حكمتي فمن سره نسل فإنا بذا نسلو

«والجهل قبل الموت» فيه **«موت أهله»** قال :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسامهم قبل القبور قبورُ
وإن امرءا لم يحي بالعلم ميتٌ وليس له حين النشور نشورُ

«من بلغم قد يتولد» أي يحصل **«الكسل ومن رطوبات»** في البدن حاصلة **«لكثرة الأكل»** كصُرد جمع أكلة بالضم. **«وكثرة البلغم للإنسان قالوا»** أي الأطباء **«تؤدي كثرة النسيان»** اليوسي : النسيان قد يكون ـ بإذن الله تعالى ـ من المزاج وهو نوعان : نوع من سوء مزاج بارد رطب يغلب على الدماغ ويمنع من بقاء ما ينطبع فيه، ونوع يكون لغلبة اليبس فيمنع الانطباع ويزول الشيء سريعا، فهذا بنوعيه يعالج بتعديل المزاج وإصلاح ما فسد، وقد يكون النسيان من خارج وعلاجه بالتحفظ منه، وذكروا أشياء تورثه ـ بإذن الله تعالى ـ بالخاصية كأكل الكزبرة كما سيأتي إن شاء الله تعالى. **«وكثرة البلغم من»** كثرة **«شرب لما والشرب»** للماء إكثاره **«من كثرة أكل علما. والبلغم السواك قد أزاحه»** : أذهبه **«وزاد**

وَفِي ٱلْقِرَاءَةِ مَزِيدُ الأَجْرِ يَجْرِي بِهِ وَفِي الصَّلَاةِ يَجْرِي
وَقَلِّلِ الأَكْلَ لِنَفْعٍ جَارِ فِيهِ كَصُحٍّ عِفَّةٍ إِيثَارِ

في الحفظ وفي الفصاحه» في المنطق، ففي الجامع الصغير : (السواك يزيد الرجل فصاحة) لأنه يصفي مجاري الكلام ويصفي الصوت، وينظف الأسنان والفم واللسان واللهوات، فيجف فمه ولسانه، فيسهل نطقه وتزيد فصاحته ويزداد جمالا وبهاء إذا تكلم. انظر المناوي. ابن قيّم : وينشط للقراءة والذكر والصلاة، ويطرد النوم، ويرضي الرب، ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات. «**وفي القراءة**» للقرءان «**مزيد الأجر يجري به وفي الصلاة يجري**» مزيده أيضا. المناوي : من فوائده أنه يطهر الفم ويرضي الرب، وينقي الأسنان، ويطيب النكهة، ويشد اللثة، ويصفي الحلق، ويذكي الفطنة، ويقطع الرطوبة، ويحد البصر، ويبطىء الشيب، ويسوي الظهر، ويضاعف الأجر، ويسهل النزع، ويذكر الشهادة عند الموت، ويرهب العدو، ويهضم الطعام، ويغذي الجائع، ويرغم الشيطان، ويورث السعة والغنى، ويسكن الصداع وعروق الرأس، ويذهب وجع الضرس والبلغم والحفر، ويصحح المعدة ويقويها، ويزيد في الفصاحة والعقل، ويطهر القلب، ويبيض الوجه، ويوسع الرزق ويسهله، ويقوي البدن، وينمي الولد والمال، وغير ذلك. «**وقلل الأكل لنفع جار فيه**» أي في تقليله، فبتأمُّلٍ منافع قلته تقلله «**كصح**» أي صحة بدن، فأكثر الأمراض من كثرة الطعام، و«**عفة**» أي تورع عن حرام؛ لقلة الشهوة الحاصلة من كثرة الأكل، و«**إيثار**» للغير بالتصدق عليه، وذلك إنما يحصل غالبا إذا أكل قليلا وتصدق بالباقي.

وقد قال يحيى ابن يحيى لمالك : أوصني، فقال : أوصيك بثلاث، الأولى أجمع لك فيها علم العلماء : إذا سئلت عن شيء لا تدريه فقل لا أدري، الثانية أجمع لك فيها طب الأطباء : أن تضع يدك في الطعام وأنت تشتهيه وأن ترفعها وأنت تشتهيه فإنك إذا فعلت ذلك لم يصبك إلا مرض الموت، الثالثة أجمع لك فيها حكمة الحكماء : إذا كنت في قوم فكن أصمتهم فإن أصابوا أصبت معهم وإن أخطئوا سلمت منهم، أي من خطئهم.

اليوسي : فنحو هذه الحمية التي ذكر الإمام رضي الله عنه تنفع الطالب في

وَيُبْغِضُ اللَّهُ كَمَا فِي الْخَبَرِ ذَا الأَكْلِ وَالْبُخْلِ وَذَا التَّكَبُّرِ
وَانْظُرْ لِمَا مِنْ ضَرَرٍ يَسْتَدْعِي كَمَرَضٍ وَكَسَلٍ فِي الطَّبْعِ
وَبِطْنَةٌ تُذْهِبُ فِطْنَةَ الْبَشَرْ وَالأَكْلُ فَوْقَ شِبَعٍ ضُرٌّ وَشَرّْ
إِلاَّ إِذَا لِغَرَضٍ لَمْ يَضْمَحِلْ مِثْلَ التَّقَوِّي لِلْعِبَادَاتِ فَحِلْ

بدنه لحفظ الصحة، وفي فهمه بالتقلل مما عسى أن يكثر المواد ويجلب بإذن الله تعالى الجمود، وفي دينه بالتنزه عن السرف وكثرة الشبهات، وفي معاشه بالتخفيف في الإنفاق، ومتى أحكم حفظ الصحة استغنى بإذن الله تعالى عن العلاج. **«ويبغض الله كما في الخبر ذا الأكل»** الكثير **«و»** ذا **«البخل وذا التكبر»** ولفظ الخبر : (ثلاثة يبغضهم الله تعالى من غير جرم : الأكول والبخيل والمتكبر)[61]. **«وانظر لما من ضرر يستدعي»** الأكل الكثير **«كمرض وكسل في الطبع»** من ملاحظة المعارف، وفيه أيضا إتلاف المال. **«وبطنة»** أي امتلاء البطن من الطعام **«تذهب فطنة البشر»** وتمنعها، وهي بالكسر الحذق والتنبه للشيء الذي تقصد معرفته. وفي الحطاب عن الإكمال في شرح الثلاثة قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم.. فيه تنبيه على أن الفطنة قلما تكون مع كثرة الشحم والاتصاف بالسمن وكثرة اللحم. وفي المنح المكية : يكفي من شؤم البطنة ما أشار إليه حديث : (المؤمن يأكل في معي واحد... إلخ)[62] من أنها تفسد العقل بإذهاب فطنته، والبدن بإذهاب نشاطه وقوته. نقله في كشف الحجاب. **«والأكل فوق شبع ضر»** محض يفسد البدن ويمرضه **«وشر»** يوجب عقاب الأخرى لحرمته، **«إلا إذا»** كان **«لغرض لم يضمحل»** شرعا لكونه صحيحا **«مثل التقوي»** به **«للعبادات»** من صوم وصلاة مثلا **«فحل»** بالكسر أي فهو حلال لهذا الغرض الصحيح. قال في المدخل : المباح من الأكل الشبع الشرعي، والمكروه ما زاد على الشبع قليلا و لم يتضرر به، والمحرم البطنة وهو الأكل الكثير المضر بالبدن، والمندوب ما يعين على

---

(61) إتحاف.

(62) متفق عليه.

مِنْ طُرُقِ التَّقْلِيلِ أَكْلُ الدَّسِمَهْ ... وَقَدِّمَ آلْطَفَ وَأَشْهَى الأَطْعِمَهْ
كَذَاكَ لِلتَّقْلِيلِ أَيضاً دَاعِ ... عَدَمُ أَكْلِكَ مَعَ الْجِيَاعِ

فصل في بداية السبق وقدره وترتيبه

وَرَدَ فِي حَدِيثِ مَنْ بِهِ آهْتُدِي ... يَتِمُّ مَا بِيَوْمِ الأَرْبِعَا آبْتُدِي

النوافل، والواجب ما لا يتوصل للواجب إلا به، ورتبة العالم التخيير بين الأكل المباح والمندوب.

اليوسي : يستعين أيضا على شأنه بأن يتحرى الحلال، ويقتصر منه على يسير، فبذلك تتنور البصيرة وتنشط الأعضاء، فإن الشبهة تعود على القلب بظلمة، وعلى الأعضاء بكسل وتوان عن الطلب، وإن الشبع كذلك، وقد قالوا : لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع، مع أن الشبع مجلبة للأمراض المعطلة عن الأخذ، مدعاة للتوسع في المال، وهو خلاف السنة، فقد قال تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾[63] وقال عليه السلام : (ما ملأ ابن آدم وعاءً شرا من بطنه... الحديث)[64] ثم قال : ولابد أن يكون في طباع الناس ومقتضى كفايتهم اختلاف، فلابد لكل واحد من الرجوع إلى كفايته بحسب طبعه وقوته وضعفه وبحسب فعله، فليس المطالع والسامع كالدارس لطلب الحفظ والمدرس مثلا، وهذا كما يذكر الصوفية من اختلاف أحوال العباد في الأكل. «**من طرق التقليل أكل**» الأطعمة «**الدسمه**» أي التي لها دسومة وسمن «**وقدم**» في الأكل «**ألطف وأشهى الأطعمه**» أي ما له زيادة وما هو أشد اشتهاء من سائرها. «**كذاك للتقليل أيضا داع عدم أكلك مع الجياع**».

«**فصل في بداية السبق وقدره وترتيبه. ورد في حديث من به اهتدي**» عليه السلام «**يتم ما بيوم الاربعا ابتدي**» ولفظه : (ما من شيء بدىء يوم الأربعاء

---

(63) الأعراف 29.

(64) الترمذي وابن ماجه والحاكم.

فَابْدَأْ بِهِ السَّبَقَ كَيْ تَتْبَعَا أَهْلَ الْهُدَى فِي الْبَدْءِ يَوْمَ الأَرْبِعَا
سُعُودُهُ لَمْ تَكُ عَنَّا نُورَا وَخَلَقَ الإِلَهُ فِيهِ النُّورَا
وَاعْنَ بِمَا يُمْكِنُ ضَبْطُهُ لَدَى إِعَادَةٍ ثِنْتَيْنِ بَادِيءَ بَدَا
زِدْ كُلَّ يَوْمٍ كِلْمَةً حَتَّى وَإِنْ طَالَ فَضَبْطُكَ بِذَا الْعَوْدِ يَعِنْ
وَزِدْهُ بِالرِّفْقِ وَبِالتَّدْرِيجِ وَكُنْ عَلَى التَّكْرَارِ ذَا تَعْرِيجِ
مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَقُولُ مَنْ سَبَقْ تَكْرَارُ الأَلْفِ وَحَرْفُ السَّبَقْ

إلا وقد تم)[65] «**فأبدأ به السبق كي تتبعا أهل الهدى في البدء يوما الأربعا**» فقد كان بعضهم يوقف بدايته عليه، وبعضهم يوقف كل عمل من أعمال الخير عليه، وذلك التوقيف لأنه «**سعوده لم تك عنا**» معاشر المسلمين «**نورا**» أي نوافر، جمع نئور أو نوار، نار ينور نورا ونوارا بالفتح والكسر : نفر. فيوم الأربعاء يوم نحس في حق الكفار فيكون مباركا للمؤمنين «**وخلق الإله فيه النورا**» فيتفاءل به ازدياد النور. «**واعن**» أي كن مهتما «**بما يمكن ضبطه**» أي حفظه وتعلمه «**لدى إعادة**» له «**ثنتين**» أي مرتين «**بادىء بدا**» أي في ابتداء التعلم، وذلك لايتأتى في السبق الكثير. «**زد كل يوم كلمة حتى**» أنه «**وإن طال**» وكثر السبق «**فضبطك بذا العود**» مرتين «**يعن**» أي يظهر «**وزده بالرفق وبالتدريج**» لا دفعة «**وكن على التكرار ذا تعريج**» أي ميل وإقامة «**من أجل ذلك يقول من سبق**» أي تقدم من العلماء «**تكرار الألف**» وهذا كناية عن الكثرة «**وحرف السبق**» وهذا كناية عن القلة، ففهم من هذا أن اللازم للمتعلم التكرير دون التكثير. قال في التبيان : وينبغي أن يبكر بقراءته على الشيخ أول النهار؛ لحديث النبي ﷺ : (اللهم بارك لأمتي في بكورها)[66]، وينبغي أن يحافظ على قراءة محفوظة، وينبغي أن لا يوثر بنوبته غيره، فإن الإيثار مكروه في القرب، بخلاف الإيثار بحظوظ النفس فإنه محبوب، فإن رأى الشيخ المصلحة في الإيثار في بعض الأوقات لمعنى شرعي فأشار

(65) كشف الخفا.

(66) أبو داوود والترمذي وابن ماجه.

وَالْبَدْأُ بِالأَخْصَرِ فَهْوَ أَيْسَرُ   فَهْماً وَحِفْظاً وَوُقُوعاً أَكْثَرُ
وَمَا حَفِظْتَهُ مِنِ آسْتِفَادَهْ   فَاكْتُبْهُ بَعْدَ الضَّبْطِ وَآلإِعَادَهْ
وَآبْدَأْ بِأَقْرَبَ لِفَهْمِكَ وَذَرْ   مَا لَسْتَ تَفْهَمُ وَخُذْ مِنْهُ الْحَذَرْ
إِذْ يُذْهِبُ الْفِطْنَةَ مَعْ ضَيَاعِ   وَقْتٍ وَمَعْ كَلاَلَةِ الطِّبَاعِ

عليه بذلك امتثل أمره، وقد مر نحوه. «والبدء» للمبتدئ يكون «**بالأخصر**» من الكتب لا بالمطولات «**فهو أيسر فهما وحفظا**» وأبعد عن الملالة «**و**» مسائله بين الناس «**وقوعا أكثر وما حفظته من استفاده**» من الأستاذ «**فاكتبه**» ويسمى كتبه تعليقا «**بعد الضبط والإعاده**» كثيرا، فإن كتبه نافع جدا؛ لأن ما حفظته كثيرا ما يذهب عن الحفظ، فإذا علقته تجده مهما رجعت إليه، وتدرسه كلما أردت درسه. «**وابدأ**» من العلوم «**بأقرب لفهمك**» وبما يسهل تعلمه من غير تعب ومشقة، فالمبتدئ إذا فهم ما ألقي إليه وتطعم حلاوة الإدراك انحل بصره وبصيرته، وتقوت رغبته في الازدياد من العلم، وذلك بإذن الله عنوان الفلاح قاله اليوسي. «**وذر**» أيها المتعلم «**ما لست تفهم**» فلا تكتبه «**وخذ منه الحذر إذ يذهب الفطنة**» أي الذكاء «**مع ضياع وقت**» بالسعي فيما لا فائدة فيه فيكون عبثا «**ومع كلالة**» أي إعياء «**الطباع**» قال في البيان والتحصيل: من الناس من هو قليل الفهم لا تتأتى له المعاني على وجوهها، وإذا سمع الشيء حمله على خلاف معناه، ومن كان بهذه الصفة فالحظ له أن يترك الاشتغال بطلب العلم إلى ما سواه من ذكر الله سبحانه وقراءة القرآن والصلاة فهو أعظم لأجره.

ويعني بالعلم ما هو منه فرض كفاية، فهو فريضة على من كان فيه موضع للإمامة فقط، كما صرح به فانظره. اليوسي: ينبغي في البداية أن لا يهجم على الخلافيات العقلية والسمعية، بل ولا على الفنون المختلفة قبل أن يعرف مدى عقله فربما ضل أو تحير، ولذا قيل: كثرة الفنون مضلة الفهوم، فليشتغل بما يطيق من الفنون حتى يقوى على غيره، وليعلم أن العقل الذي يرام إدراك العلوم به مثاله مثال الحيوان الذي يربيه للاصطياد به، فإن هو أهمله أولا عن أكل اللحم واقتناص ما قرب لم يضر بالصيد، وإن كلفه من صغره الظباء وبقر الوحش عجز، فالواجب التدريج من الصغير إلى الكبير، ومثاله أيضا الجذع من الخيل إن أهملته في المرج

وَٱفْهَمْ مِنَ ٱلشَّيْخِ وَبِٱلتَّفَكُّرِ ... وَبِٱلتَّأَمُّلِ وَجِدّاً كَرِّرِ
مَنْ يُعْنَ بِالْقِلَّةِ وَالتَّأَمُّلِ ... وَكَثْرَةِ التَّكْرَارِ فَهْماً يَكْمُلِ
فَحِفْظُ حَرْفَيْنِ وَفَهْمُ حَرْفَيْنْ ... أَنْفَعُ مِنْ سَمْعٍ وَحِفْظِ وِقْرَيْنْ

ولم تحركه للجري لم يتعلم، وإن كلفته جري المذاكي عجز وربما انقطع نياطه فمات، فالواجب أن تركضه وترسله على سجيته فلايزال يزداد حتى يكمل، ولذا قيل : خاطبوا الناس بما يَفهمون. ويقال : الربانيُّ : الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره. ثم إذا كمل إدراكه فليعتن بالمهمات، وهي العلوم الشرعية وما يستعان به عليها على ما مر من تفصيلها، ويلم بالبواقي إلماما، ولا ينبغي إن أعطي قوة في الإدراك أن يجتنب شيئا من العلوم حتى يعاديه، فإن الناس أعداء ما جهلوا، وليعلم أن العلوم داخل بعضها في بعض، وليس أحد يكمل في شيء منها على ما ينبغي وهو جاهل بالبواقي، ولاسيما العلوم الشرعية، وهي المقصودة، ولا يهمل مشاوره شيخه في شيء من الأمور والاستضاءة بمصباحه. **«وافهم من الشيخ»** أي اجتهد في الفهم منه **«وبالتفكر وبالتأمل»** فيما قاله. قال في شرح الإحياء : للعلم ست مراتب : أولها حسن السؤال، الثانية حسن الإنصات والاستماع، الثالثة حسن الفهم، الرابعة الحفظ، الخامسة التعليم، السادسة وهي ثمرته هي العمل به ومراعاة حدوده. **«وجدا كرر»** فإنه **«من يعن بالقلة»** في السبق **«والتأمل وكثرة التكرار فهما يكمل»** ويكمل إدراكا للسبق **«فحفظ حرفين»** أي كلمتين **«وفهم حرفين أنفع من سمع»** وقرين **«وحفظ وقرين»** الوقر بالكسر : الحمل. يعني أن حفظ حرفين خير من سماع حملين من غير حفظ، وفهم حرفين خير من حفظ وقرين.

قال في التبيان : التقلل من روايات الأحاديث مع التفقه فيها أولى من الإكثار مع قلة التفقه فيها، فقد قال عليه السلام : (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)[67] والذي يروي الحديث ولا يتفقه فيه كمثل الحمار يحمل أسفارا وبئس مثل السوء.

(67) متفق عليه.

مَنْ لَيْسَ فِي الْفَهْمِ لَهُ ٱجْتِهَادُ | لِعَدَمِ الفَهْمِ إِذاً يَعْتَادُ
فَلْتَجْتَهِدْ وَلِلتَّكَاسُلِ دَعَا | وَٱضْرَعْ فَرَبُّنَا يُجِيبُ مَنْ دَعَا
وَلاَ يَخِيبُ مَنْ رَجَاهُ وَٱخْدِمِ | ٱلْعِلْمَ مُسْتَفِيدَهُ وَأَدِمِ
ثُمَّتَ لاَبُدَّ مِنَ الْمُنَاظَرَهْ | مَعَ ٱلْمُطَارَحَةِ وَالْمُذَاكَرَهْ

اليوسي : مما يعين على التبحر في علمٍ التأليفُ فيه، ومما يعين على ثبوت المحفوظ المراجعة والتكرار والتعليم فمن لم يشتغل بالتدريس فيما حصل من الفنون والعلوم قلما يثبت منها على طائل... ثم قال : ومما يذكي القريحة منافسة أهل التحصيل، وهي محمودة، فلا خير فيمن لا ينافس على الخير.

«من ليس في الفهم له اجتهاد» فتكاسل فيه مرة أو مرتين **«لعدم الفهم إذا»** لما يسهل فهمه وإدراكه **«يعتاد فلتجتهد وللتكاسل دعا»** أي اترك فالألف بدل نون توكيد خفيفة **«و»** ادعُ الله تعالى، و**«اضرع»** إليه **«فربنا يجيب من دعا»** قال في محكم كتابه : ﴿ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(68) **«ولا يخيب من رجاه واخدم العلم»** حال كونك **«مستفيده وأدم»** قال :

اخدم العلم خدمة المستفيد | وأدم درسه بفعل حميد
وإذا ما حفظت شيئا أعده | ثم أكده غاية التأكيد
ثم علقه كي تعود إليه | وإلى درسه على التأبيد
فإذا ما أمنت منه فواتا | فانتدب بعده لشيء جديد
مع تكرار ما تقدم منه | واقتناء لشأن هذا المزيد
ذاكر الناس بالعلوم لتحيا | لا تكن من أولي النهى ببعيد
إن كتمت العلوم أنسيت حتى | لا ترى غير جاهل وبليد
ثم ألجمت في القيامة نارا | وتلهبت بالعذاب الشديد

«ثمت لابد من المناظرة» : المباحثة **«مع المطارحة»** طرح أحدهما كلام الآخر، فالمناظرة مفاعلة من النظر؛ لأن كلا منهما يدفع نظر صاحبه بنظر نفسه، أو لأن كلا منهما يدفع مناظره أي خصمه **«و»** لابد من **«المذاكرة»** وهي أن يتوافقا على

---

(68) غافر 60.

فَبِٱلْمُنَاظَــــرَةِ وَٱلْمُذَاكَــــرَهْ يُسْتَخْرَجُ الصَّوَابُ كَٱلْمُشَاوَرَهْ

المطلوب ويتعاونا من غير نزاع، فهي محادثة العلماء بينهم؛ ليذكر بعضهم بعضا من الأحكام ما كان نسيه، قاله في المباحث، وذكر عن النفراوي أن المناظرة تسمى مذاكرة. «**فبالمناظرة والمذاكره يستخرج الصواب**» فهما «**كالمشاوره**».

الماوردي : قال عمر بن عبد العزيز : إن المشورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة، لا يضل معهما رأي، ولا يفقد معهما حزم.

فالمذاكرة تعين على حفظ العلم وزيادته، قال ابن مسعود رضي الله عنه : تذاكروا الحديث فإن حياته مذاكرته. وعن عبد الرحمٰن ابن أبي ليلى إحياء العلم مذاكرته. وقال بعض السلف : إذا سمعت حديثا فحدث به حين تسمعه، ولو أن تحدث به من لا يشتهيه فإنه يكون كالكتب في صدرك، ومن هذا ما يروى عن إسماعيل ابن رجاء أنه كان يأتي صبيان المكتب فيعرض عليهم حديثه؛ كي لا ينسى. وقالوا : علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت. ولبعضهم :

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ... ولم يستزد علما نسي ما تعلما
فكم جامع للعلم في كل مذهب ... يزيد على الأيام في جمعه عمى

الماوردي : قال بعض العلماء : لا تخل قلبك من المذاكرة فيعود عقيما، ولا تعف طبعك من المناظرة فيصير سقيما. وقال بشار ابن برد :

شفاء العمى طول السؤال وإنما ... يديم العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فإنما ... دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

وقال في جامع بيان العلم وفضله : من أكثر من مذاكرة العلماء لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم.

وتنبغي المذاكرة قبل افتراق المجلس قبل وقوع النسيان وخمود القرائح واختلاط العقول وافتراق الأصحاب، غير أنه قد يحصل من المجلس إذا طال فتور وملل فيتعين تأخيرها ربما تجم القرائح من غير طول، وأفضل أوقاتها اليل، وتكون مع الأصحاب أو من يصلح غيرهم، ومن لم يجد من يصلح فليذاكر نفسه بنفسه

وَفِيهِمَا آتَّصِفْ بِذِي ٱلأَوْصَافِ ‏ ‏ ‏ ‏ تَأَمُّــــلٍ تَــــأَنٍّ الإِنْصَافِ
فَمَنْ بِذِي الأَوْصَافِ ذُو آتِّصَافِ ‏ ‏ ‏ ‏ مُسْتَنْبِطٌ عَذْبَ الصَّوَابِ الصَّافِي
وَلَمْ يَكُـنْ بِــغَضَبٍ وَشَغَبِ ‏ ‏ ‏ ‏ مُسْتَنْبِطاً بَلْ ذَاكَ مِنْ شَأْنِ الْغَبِي

وليجرد من نفسه مخاطبا إن أراد أن يأتي بها على صورة التعليم، وقد كان بعضهم يجمع أحجارا فيخاطبها.

وعند الاشتغال بالتعليم يظهر ما حصل، ويلجئه الأمر إلى التأمل والمراجعة والاهتمام، وذلك هو عنوان الانتفاع، فالطالب قبل الاشتغال بالمذاكرة والتعليم مثل الولد يعيش في كسب أبيه، فلا يكون عليه كبير هم، فإذا اشتغل بغيره صار بمنزلة الوالد بعد أن يتعلق به العيال، ويكون قيما عليهم، قاله اليوسي. **«وفيهما»** أي في المناظرة والمذاكرة **«اتصف بذي الأوصاف»** الثلاثة **«تأمُّل تأن»** قال ابن شأس في جواهره : ومن جالس عالما فلينظر إليه بعين الإجلال، ولينصت له عند المقال، فإن راجعه راجعه تفهما لا تعنتا، ولا يعارضه في جواب سائل يسأله، فإنه يلبس بذلك على السائل ويزري بالمسئول، ولا ينتظر بالعالم فتنة، ولا تؤخذ عليه عثرة، وبقدر إجلال الطالب للعالم ينتفع الطالب بما يستفيد من علمه، ومن ناظره في علم فبالسكينة والوقار وترك الاستعلاء، فحسن التأني وجميل الأدب معينان على العلم، ونعم وزير العلم الحلم.

العدوي : قوله : معينان على العلم... أي فمن ناظر عالما وتحلى بما ذكر يرجى أن يعطى الصواب من العلم وتثبت له الغلبة على مناظره، وذكر أن السكينة ترجع إلى عدم اضطراب الجوارح، والوقار يرجع إلى احترام المناظر، والالتفات إليه على وجه الأدب الذي يليق به. **«الإنصاف»** أي العدل؛ بأن تساوي بين خصمك ونفسك فلا تجحد الحق؛ لأنك كناشد ضالة لا تبالي أين وجدتها، ولا تحب ظهور الحق على يديك عن أن يظهر على يد خصمك كما كان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى. قاله في المباحث. **«فمن»** أي فمناظر **«بذي الأوصاف ذو اتصاف مستنبط»** أي مستخرج **«عذب الصواب الصافي ولم يكن»** المناظر **«بغضب وشغب»** أي تهييج الشر وتحريكه **«مستنبطا»** للصواب **«بل ذاك من شأن الغبي»** قال في شرح الخاتمة عن عز الدين : لا يجوز الجدال والمناظرة إلا لإظهار الحق ونصرته؛ ليعرف

وَفِي ٱلْمُنَاظَرَةِ زَيْدٌ عِلْمَا فَهْيَ مِنَ التَّكْرَارِ أَقْوَى فَهْمَا
تَكْرَارُ شَهْرٍ سَاعَةُ الْمُطَارَحَهْ تَفُوقُهُ حَيْثُ تَكُونُ صَالِحَهْ
بِأَنْ تَكُونَ مَعَ ذِي ٱتِّصَافِ بِسَالِمِ الطَّبْعِ وَبِٱلإِنْصَافِ
وَلاَ تُذَاكِرْ رَابِعاً بِرَبْعِ تَعَنُّتٍ لاَ مُسْتَقِيمِ الطَّبْعِ

ويعمل به، ومن جادل لذلك جاز، وقيل مندوب، وقيل واجب، ومن جادل لغرض آخر فقد عصى وخاب، ولا خير فيمن يتحيل لنصرة مذهبه مع ضعفه وبعد أدلته من الصواب. وللمذاكرة الجائزة آداب منها تجنب الاضطراب ماعدا اللسان من الجوارح، والاعتدال في رفع الصوت وخفضه، وحسن الإصغاء إلى كلام صاحبه، وأن يجعل الكلام مناوبة لا مناهبة، والثبات على الدعوى إن كان مجيبا، والإصرار على السؤال إن كان سائلا، والاحتراز عن التعنت والتعصب والمبالغة والرياء والمباهاة والضحك واللجاج وترك قبول الحق، فإذا وقعت على هذا المقصد أفادت خمس خصال : إيضاح الحجة، وإبطال الشبهة، ورد المخطىء إلى الصواب، والضال إلى الرشاد، والزائغ إلى صحة الاعتقاد. مع الذهاب إلى التعليم وطلب التحقيق. انتهى منه، ونحوه في المباحث.

«وفي المناظرة زيد» أي زيادة **«علما»** أي من العلم، ففيها تكرار لما علمته، وزيادة ما لم تعلمه، فبها ينكشف من المعاني الدقيقة الغامضة ما لا ينكشف بدونها **«فهي من»** مجرد **«التكرار أقوى فهما»** أي في الفهم، فقد قيل : **«تكرار شهر ساعة المطارحه تفوقه»** فهي خير منه، لكن هذا **«حيث تكون صالحه»** وذلك **«بأن تكون مع ذي اتصاف بسالم الطبع»** أي بالطبع السليم من الاعوجاج **«وبالإنصاف»** ابن عبد البر : قالوا : الواجب على العالم أن لا يناظر جاهلا ولا لجوجا، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر، وكان القرافي كثيرا ما يتمثل :

وإذا جلست إلى الرجال وأشرقت في جو باطنك العلوم الشرد
فاحذر مناظرة الحسود فإنما تغتاظ أنت ويستفيد ويجحد

«ولا تذاكر رابعا» أي واقفا، ربع كمنع : وقف وانتظر وتحبس **«بربع تعنت»** الربع الدار والمنزل، أي اترك المذاكرة مع متعنت أي طالب لزلة الخصم **«لا مستقيم**

إِذِ الطَّبِيعَـةُ لَهَـا آسْتِـرَاقُ وَتَتَعَدَّى لِلسُّوَى الأَخْـلاَقُ
وَلِلْمُجَـاوَرَةِ تَأْثِيـرٌ تُـرَى الْخِـلِّ مِـنْ خَلِيلِـهِ تَأَثُّـرَا
وَآعْتَدْ تَأَمُّلَ دَقِيقِ الْعِلْـمِ فِي كُلِّ وَقْتٍ تُلْفِهِ بِالْفَهْمِ
وَآجْعَلْ صَوَاباً بِالتَّأَمُّلِ الْكَلاَمْ فَقَوِّمِ الْكَلاَمَ تَقْوِيمَ السِّهَامْ
ثُـمَّ التَّأَمُّـلُ مَـعَ التَّثَـبُّتِ لِلْعَقْلِ رَأْسٌ دُونَهُ لَمْ يَثْبُتِ

الطبع» فالمذاكرة إنما تكون مع الأصحاب المنصفين لا المتعصبين، فإن لم تجد من يصلح فلتذاكر نفسك كما مر. **«إذ الطبيعة لها استراق»** لأخلاق الصاحب شيئا فشيئا **«وتتعدى»** أي تتجاوز **«للسوى الأخلاق»** أي الأوصاف **«وللمجاورة»** أي المقاربة والمقارنة **«تأثير ترى الخل من خليله تأثرا»** فيظهر فيه من الآثار والأوصاف ما كان مخصوصا بصاحبه، فقد قيل : من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها. وقد قال في الحكم : لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله.. ربما كنت مسيئا فأراك الإحسان منك.. صحبتك من هو أسوأ حالا منك. وقد قال سهل ابن عبد الله رضي الله عنه : احذر ثلاثة أصناف من الناس : الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين. وقال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب، ومع أبناء الآخرة بالعلم، ومع العارفين كيف شئت. ولبعض الشعراء :

مجالسة السفيـه فساد رأي ومـن عقـل مجالسة الحكيم
فـإنك والقريـن معـا سواء كما قـدّ الأديم مـن الأديم

«واعتد تأمل دقيق العلم في كل وقت تلفه» أي تجد الدقيق وتدركه **«بالفهم»** لا محالة فإنما تدرك الدقائق بالتأمل، ولذا قيل : تأمل تدرك. **«واجعل صوابا بالتأمل الكلام فقوم الكلام تقويم السهام»** فكما أن سهم القوس إذا اعوج لا يصل المقصود فكذا سهم الكلام إذا كان فيه اعوجاج بأن كان غير مقصودك لم يصل إلى المراد.

«ثم التأمل مع التثبت» في الكلام بالتأني والوقار **«للعقل رأس دونه لم يثبت»** ثم بيّن ما يتأمل في الكلام أخذا من قول الشاعر :

لاَ تُغْفِلَـنْ سَبَبَ التَّكَلُّـمِ   كَالْوَقْتِ وَالْكَيْفِ الْمَكَانِ وَالْكَمِ

أوصيك في نظم الكلام بخمسة   إن كنت للموصي الشفيق مطيعا
لا تغفلن سبب الكلام ووقتـه   والكيـف والكـم المكـان جميعـا

فقال : «**لا تغفلن سبب التكلم**» فلابد من داع يدعو إلى الكلام، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر؛ لأن ما لا داعي له هذيان، وما لا سبب له هجر، ومن سامح نفسه في الكلام إذا عن ولم يراع صحة دواعيه وإصابة معانيه كان قوله مرذولا ورأيه معلولا «**كالوقت**» الذي ناسب فيه دون غيره «**والكيف**» أي وصف الكلام، فلابد من اختيار اللفظ الذي تتكلم به؛ لأن اللسان عنوان الإنسان.. يترجم عن مجهوله، ويبرهن عن محصوله، فيلزم أن يكون بتهذيب ألفاظه حريا، وبتقويم لسانه مليا. قال خالد ابن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان ؟ هل كان إلا بهيمة مهملة، أو صورة ممثلة ؟. وقال بعض الحكماء : اللسان وزير الإنسان. وقال بعض البلغاء : يستدل على عقل الرجل بقوله، وعلى أصله بفعله. و«**المكان**» الذي ناسب الكلام فيه، فتأتي به في موضعه، وتتوخى به إصابة فرصته، فمن قدم ما يقتضي التأخير كان عجلة وخرقا، ومن أخر ما يقتضي التقديم كان توانيا وعجزا؛ لأن لكل مقام قولا، وفي كل زمان عملا. «**والكم**» أي مقداره فتقتصر منه على قدر الحاجة، فإن الكلام إن لم ينحصر بالحاجة ولم يقدر بالكفاية لم يكن لحده غاية ولا لقدره نهاية، وما لم يكن من الكلام محصورا كان إما حصرا إن قصر أو هذرا إن كثر. حكي أن بعض الحكماء رأى رجلا يكثر الكلام ويقل السكوت فقال : إن الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولسانا واحدا؛ ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به !!

وقال بعض البلغاء : كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل، وإياك وما يسخط سلطانك ويوحش إخوانك، فمن أسخط سلطانه تعرض للمنية، ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرية. ولأبي الفتح البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فإنما   كلامك حـي والسكـوت جماد
فإن لم تجد قولا سديدا تقوله   فصمتك عن غير السداد سداد

وَسَائِرَ الأَحْوَالِ وَالأَوْقَاتِ   كُنْ مُسْتَفِيداً مِنْ جَمِيعِ النَّاتِ
فَحِكْمَةٌ ضَالَةُ مُؤْمِنٍ أُثِـرْ   وَمَا صَفَا خُذْهُ وَدَعْ مَا قَدْ كَدِرْ

وقال آخر :

خير الكلام قليل   على كثير دليل
والعي معنى قصير   يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول   وفيه قال وقيل

قال في شرح الخاتمة : فجميع ما يتكلم به الإنسان على أربعة أقسام : ما ليس فيه إلا المضرة، وما فيه مضرة ومنفعة فهما حرام، فمضرة الثاني ذهبت بمنفعته، وما لا مضرة فيه ولا منفعة فلا ينبغي الإكثار منه؛ لئلا يذهب العمر باطلا، وما ليس فيه إلا المنفعة فهذا هو المطلوب، فخرج من هذا أن ثلاثة أرباع الكلام لا خير فيها، وليس له من كلامه إلا الربع، قاله الجزولي.

«وسائر الأحوال والأوقات» أي في جميعها «كن مستفيدا من جميع النات» من غير نظر إلى كون الشخص وضيعا أو شريفا، صغيرا أو كبيرا، ذكرا أو أنثى.

المناوي : عدوا من محاسن الأخلاق الإصغاء لكلام الجليس، وأنه إذا سمع إنسانا يورد شيئا عنده منه علم لا يستلب كلامه ولا يغالبه ولا يسابقه، فإن ذلك ضعف نفس ودناءة همة، بل يستمعه منه كأنه لا يعرفه ـ سيما في المجامع ـ.

وقد عد اليوسي من آداب المتعلم أن يخلع عنه جلباب الحياء والكبر في التعلم ويرمي بنفسه في غمرات الطلب فلا يستحيي ولا يأنف أن يسأل عما لا يعلم، ويستفهم عما لا يفهم، ولا أن يقول : لم أفهم، فإن الوجه إذا لم يحمر في مثل هذا لم يبيض أبدا. وينسب إلى عمر رضي الله عنه : من رق وجهه رق علمه. وقال مجاهد : لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر. «فحكمة ضالة مومن» بتخفيف اللام للوزن «أثر» بالتركيب أي روي عنه عليه السلام، ولفظ الحديث : (الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها)(69) ومن كلام علي رضي الله عنه : انظر إلى ما قال، ولا تنظر إلى من قال. ومن كلامه أيضا : العلم ضالة المؤمن

---

(69) ابن كثير وكشف الخفا والأسرار المرفوعه.

قَالَ أَبُو يُوسُفَ بِالإِفَادَهْ أَدْرَكْتُ عِلْماً وَبِالاِسْتِفَادَهْ
كَذَا ٱبْنُ عَبَّاسٍ بِقَلْبِهِ الْعَقُولْ أَدْرَكَ عِلْماً وَلِسَانِهِ السَّؤُولْ

فخذوه ولو من أيدي المشركين. ومن أمثالهم المشهورة : العق العسل ولا تسل. «و» قد قيل : «ما صفا» مما استفدته «خذه ودع ما قد كدر» بالتثليث لكن الكسر هنا أولى؛ حذرا من سناد التوجيه. أي اترك ما كان مشوبا بضعف أو فساد. وقد قلت :

وَفِي السِّجِلْمَاسِي الإِمَامِ السَّامِي ٱلْعِلْـمُ ذُو ثَلاَثَــةِ أَقْسَامِ
فَـأَوَّلٌ لِلْعَقْـلِ ذُو ٱنْـتِسَابِ كَعِلْمَـي الْمَنْطِـقِ وَٱلْـحِسَابِ
وَلَيْسَ مُحْتَاجاً إِلَى أَنْ يُعْرَفَـا نَاقِلُـهُ قَطْعـاً وَلاَ مَـنْ ٱلَّفَـا
وَفِيهِ قِيلَ الْعِلْمُ خُذْهُ حَتَّـى مِنْ كَافِرٍ وَٱجْنِ الثِّمَـارَ بَحْتَـا
وَالثَّانِ نَقْلِيٌّ وَمِنْ عَقْلٍ بَـرِي كَعِلْمِ قُـرْءَانٍ وَعِلْـمِ الْخَبَـرِ
وَهْوَ مُحْتَـاجٌ إِلَى أَنْ يُعْقَـلاَ حَالُ الَّـذِي ٱلَّفَـهُ أَوْ نَقَـلاَ
وَثَالِثٌ عَقْـلاً وَنَقْـلاً يَحْـوِي كَعِلْمِ فِقْـهٍ وَكَعِلْـمِ النَّحْـوِ
يُذْكَـرُ نَاقِـلٌ لِهَـذَا أَوْ لاَ يُذْكَرُ وَالذِّكْـرُ لَدَيْهِـمْ أَوْلَـى
وَلِلْقَرَافِي مَنْـعُ فَتْـوَى وَعَمَـلْ مِنْ كُتُبٍ جُهِلَ مَنْ لَهَا نَقَلْ
مَا لَمْ تَكُنْ صَحِيحَةَ ٱلأَحْكَامِ تُرْفَلُ فِي نَسْجٍ يَدِ ٱلإِحْكَامِ

«قال أبو يوسف» وقد قيل له : بمَ أدركت العلم ؟ **«بالإفاده أدركت علما وبالاستفاده»** فلم يبخل بالإفادة لكل أحد ولم يستنكف عن الاستفادة من كل أحد. الماوردي : قال الخليل بن أحمد : اجعل تعليمك دراسة لعلمك، واجعل مناظرة المتعلم تنبيها على ما ليس عندك. وقال ابن المعتز في منثور الحكم : النار لا ينقصها ما أخذ منها، ولكن يخمدها أن لا تجد حطبا.. كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس، ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه، فإياك والبخل بما تعلم. **«كذا ابن عباس بقلبه العقول أدرك علما ولسانه السؤول»** وقد سئل بعضهم : ما السبب الذي ينال به العلم ؟ قال بالحرص عليه يتبع، وبالحب له يستمع، وبالفراغ له

وَأَصْبَحَ النُّعْمَانُ مِنْ فُرْسَانِهِ   وَهْوَ يَبِيعُ الْبَزَّ فِي دُكَّانِهِ
جَرًّا مُذَاكَرَتِهِ فَالْكَسْبُ مَعْ   تَحْصِيلِ عِلْمٍ رُبَّمَا قَدِ اجْتَمَعْ
فَكُنْ إِلَى التَّكْرَارِ ذَا انْتِسَابِ   إِنْ يَكُ لَابُدَّ مِنِ اكْتِسَابِ
مَنْ صَحَّ مِنْهُ الْعَقْلُ وَالْبَدَنُ فِي   أَنْ يَتْرُكَ التَّحْصِيلَ عُذْرُهُ نُفِي
لَمْ يَمْنَعِ الْفَقْرُ أَبَا يُوسُفَ مِنْ   تَفَقُّهٍ وَهُوَ بِالْفَقْرِ قَمِنْ
فَإِنْ يَكُنْ مَالٌ فَنِعْمَ مَالُ   كَانَ بِتَحْصِيلٍ لَهُ اسْتِعْمَالُ

يجتمع. **«وأصبح»** أبو حنيفة **«النعمان من فرسانه»** أي العلم فقد تفقه **«وهو يبيع البز»** : الثياب أو متاع البيت من الثياب ونحوها كما في القاموس **«في دكانه»** أي حانوته **«جرا»** أي لأجل كثرة **«مذاكرته»** فيه ومطارحته **«فالكسب مع تحصيل علم ربما قد اجتمع»** كما وقع لأبي حنيفة وغيره **«فكن إلى التكرار ذا انتساب»** ولا تكسل **«إن يك لابد»** لك يا طالب العلم **«من اكتساب»** لنفقة من لزمتك نفقته، فإن **«من صح منه العقل والبدن في أن يترك التحصيل»** للعلم والفقه **«عذره نفي»** فلا يعذر بفقر ولا غيره **«لم يمنع الفقر أبا يوسف من تفقه وهو بالفقر قمن»** فلا أفقر منه.

وللشيخ محمذن فال بن متالي رحمهُ الله تعالى :

وليس بالإمكان شخص يعذر   بالجهل إلا من به لا نشعر
لأنه في كل قطر عالم   والدين حمدا للإله قائم
وربنا قال تعالى : فاسألوا   أي الذين علموا فعملوا
وغيره نعرفه لا ينصح   وضره أقرب مما يصلح
وآذن الحال بقرب القبض   للعلم في كل نواحي الأرض
تعذرت أسبابه وندرا   طالبه وهان من بين الورى
وقد روى من يرد الإله به   خيرا يفقهه البخاري فانتبه
وقال فيه عمر المؤيد   تفقهوا من قبل أن تسودوا

«فإن يكن مال» كثير لك **«فنعم مال»** صالح لم يشبه حرام **«كان بتحصيل»** للعلوم **«له استعمال»** فقد يكون الغنى مما يعين على الطلب، وذلك من أوجه :

وَالْبَعْضُ نَالَ الْعِلْمَ مِنْ غِنَى أَبِهْ إِذْ كَانَ يُحْسِنُ لأَهْلِ الْعِلْمِ بِهْ
وَنَالَ فِيهِ الرُّتْبَةَ الْمُنِيفَهْ بِالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ أَبُو حَنِيفَهْ
يَحْمَدُ إِنْ لِفِقْهٍ اوْ لِحِكْمَهْ فَهِمَ أَوْ وَفَّقَ مُولِي النِّعْمَهْ
فَلْتَشْكُرَنْ اللَّهَ بِالأَرْكَانِ وَالْمَالِ وَاللِّسَانِ وَالْجَنَانِ

الأول : أنه به تكون الكفاية للطالب عما عسى أن يزعجه عن الطلب، الثاني : أنه يتيسر به الإنفاق في سبيل الله الذي هو مجلبة الخيرات ولاسيما على المعلم فإن الإحسان إليه وخدمته بالنفس والمال هو مفتاح الخير؛ ولذا يذكر في الحكايات الفقهية : قبح الله الفقر أدركنا مالكا وقرأنا على ابن القاسم، الثالث : أنه يتأتى به انتخاب الأطعمة التي تكون عنها بإذن الله تعالى الصحة وسلامة الحواس وحدة الفكر وقوة الحفظ؛ ولذا شاع عند المتعاطين للعلم إذا ذكروا الشرائط والأسباب أن يعدُّوا الشيخ الفتاح والكتب الصحاح والقدر الفواح. وقد يكون الفقر مع توفيق الله وعصمته سببا للتحصيل وذلك من أوجه : الأول : أنه يكون معه التجرد عن الشواغل الدنيوية أخذا وعطاء وحراسة وانتهاضا لتنمية المال ونحو ذلك، الثاني : أنه تخمد معه النفس غالبا فيذهب عنها الكبر المانع من التعلم وما يلزم ذلك من التفاخر ونحوه وتذهب عنه الشهوات النفسانية الموقعة في المعاصي واستعجال التأهل القاطع عن الطلب، الثالث : أنه يرجى معه شدة الافتقار إليه تعالى ووجود الاضطرار الذي هو مفتاح الاستجابة قال تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾[70] وذلك كفيل بكل خير ؛ ولذا يقال : لولا أولاد الفقراء لذهب العلم أو لضاع العلم. قاله اليوسي.

«والبعض نال العلم من غنى أبه إذ كان» أبوه **«يحسن لأهل العلم»** والفضل **«به ونال فيه الرتبة المنيفه»** أي المرتفعة المشرفة **«بالحمد»** لله تعالى والثناء **«والشكر»** في مقابلة نعمه جل **«أبو حنيفه يحمد»** أي يقول الحمد لله **«إن لفقه او لحكمه»** أي معرفة من المعارف **«فهم أو وفق مولي النعمه»** عز وجل فازداد علمه لذلك **«فلتشكرن الله بالأركان»** أي الجوارح، بأن تستعمل نعمه تعالى في محابه لا في

---

(70) النمل 64.

معاصيه، وقد قلت :

عَـدَمُ عِصْيَـانِ الإِلَـهِ بِالنِّعَـمْ حَدٌّ بِهِ الشُّكْرَ الْجُنَيْدُ ذُو الْحِكَمْ

فشكر نعمة العين هو أن تستعملها في مطالعة كتاب الله وكتب العلم مثلا، وشكر نعمة الأذن هو أن تستعملها في سماع الذكر وما ينفع في الآخرة وتعرض عن الاصغاء إلى الهجر والفضول. «والمال» بأن تتصدق بطيبه على الفقراء «واللسان» باستعماله في ذكر الله تعالى والحمد له مثلا «والجنان» باستعماله في الفكر والذكر والمعرفة وإضمار الخير للخلق وحسن النية كما في كتاب الأربعين. وقال في بصائر ذوي التمييز : الشكر مبني على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره... هذه الخمسة هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر، وكل من تكلم في الشكر فكلامه إليها يرجع وعليها يدور، فقيل حدُّه أنه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وقيل الثناء على المحسن بذكر إحسانه، وقيل هو عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته وجريان اللسان بذكره والثناء عليه، وقيل هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة.

وقال ابن عباد : إذا أوصل الحق تعالى إليك نعمة على يد إنسان ــ سواء كانت دينية أو دنيوية ــ فعليك في ذلك وظيفتان : إحداهما أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك فلا ترين النعمة إلا منه وحده وترى من سواه ممن أجراها على يديه مقهورا مجبورا على ذلك مسلطا عليه الدواعي والبواعث حتى لم يجد انكفافا عنه وهذا هو حق التوحيد، والثانية أن تشكر من وصلت إليك على يده بأن تدعو له وتثني عليه؛ امتثالا لأمر الله تعالى، وعملا بما جاءت به الشريعة، قال تعالى : ﴿أَنُ آشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[71] وفي الحديث : (من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله)[72] وفيه : (أشكرُ الناس لله أشكرهم للناس)[73] ولأن الله تعالى اختصه بأن أقامه في ذلك وأهله له ومن أسمائه تعالى الشكور

---

(71) لقمان 13.

(72) الترمذي وأحمد.

(73) البيهقي والطبراني.

وَالْعِلْمَ وَالتَّوْفِيقَ وَالْفَهْمَ آعْتَقِدْ   مِنْهُ عَلاَ وَآطْلُبْ هِدَايَةً تَجِدْ
طَالِبُ ذِي آلْعِزَّةِ وَالْجَلاَلَـهْ   هِدَايَـةً عُصِمَ مِـنْ ضَلاَلَـهْ
وَمَنْ عَلَى الْخَلْقِ كَعَقْلِهِ آتَّكَلْ   يَصِيرُ مَحْجُوباً فَضَلَّ وَأَضَلْ
وَفِي حَدِيثِ خَيْرِ عُجْمٍ وَعَرَبْ   مَنْ عَرَفَ النَّفْسَ فَقَدْ عَرَفَ رَبْ

فليتخلق العبد بذلك وهذا هو حق الشرع. **«والعلم والتوفيق والفهم اعتقد»** أنها **«منه علا واطلب هداية»** منه تعالى بدعاء وتضرع إليه **«تجد»**ها، فإن من استهداه هداه ودله على ما يوصله إلى مقصوده من علم وغيره **«طالب ذي العزة والجلاله»** تبارك وتعالى **«هداية»** أعطاه تعالى ما سأل فهدي و**«عصم»** أي منع ووقي **«من ضلاله»** في الدين. والحكمةُ في أن الله تعالى طلب منا سؤال الهداية إظهارُ الافتقار والإذعان والإعلام بأنه لو هداه قبل أن يسأله لربما قال : إنما أوتيته على علم عندي فيضل بذلك، فإذا سأل العبد ربه فقد اعترف على نفسه بالعبودية ولمولاه بالربوبية، كما في شرح الخاتمة عن الفشني. **«ومن على الخلق كعقله اتكل يصير محجوبا»** عن معرفة الحق **«فضل وأضل»** غيره فالعقل مخلوق عاجز لا يدرك جميع الأشياء كالبصر لا يبصر جميع الأشياءِ. قال في الحكم : ما توقَّف مطلب أنت طالبه بربك ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك. ابن عباد : وذلك أن من أنزل حوائجه بالله تعالى والتجأ إليه وتوكل عليه كفاه كل مؤنة وقرب إليه كل بعيد ويسر عليه كل عسير، ومن سكن إلى عمله وعقله واعتمد على حوله وقوته وكله إلى نفسه وخذله وحرمه توفيقه وأهمله فلم تنجح مطالبه ولم تتيسر مآربه.

وما أحسن قول القائل !! :

إذا لم يعنك الله فيما تريـده   فلـيس لمخلـوق إليــه سبيـــل
وإن هو لم يرشدك في كل مسلك   ضللت ولو أن السماك دليـل

وقول الآخر :

إذا كان عونُ الله للمرء ناصرا   تهيا له من كل صعب مراده
وإن لم يكن عون من الله للفتى   فأكثر مـا يجني عليـه اجتهاده

«وفي حديث خير عجم وعرب» عليه السلام **«من عرف النفس»** أي نفسه بصفات المخلوقين من عجز وفناء وضعف وفقر **«فقد عرف رب»** أي ربه بصفات

وَجُدْ بِمَالِكَ فَلاَ تَبْخَلْ بِهِ فَالْبُخْلُ هُوَّ الدَّاءُ عُذْ مِنْ قُرْبِهِ

الخالق من قدرة وبقاء وقوة وغنى، فإذا عرف عجز نفسه عرف قدرته جل، فلا يعتمد على نفسه وعقله، بل يتوكل على الله ويطلب منه الحق ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[74].

تنبيه : من عرف نفسه فقد عرف ربه اختلف فيه هل هو حديث أو من كلام أهل الحكمة، فقال النووي لم يثبت عنه عليه السلام، فقيل من كلام يحيى ابن معاذ الرازي. «**وجد بمالك فلا تبخل به**» على نفسك ولا على غيرك «**فالبخل هو الداء**» قال عليه السلام : (أي داء أدوأ من البخل)[75] «**عذ**» بالله تعالى «**من قربه**» وحد البخل : منع ما يوجبه الشرع أو المروءة.

ولبعضهم :

أرى الناس خلان الجواد ولا أرى بخيلا له في العالمين خليل
وإني رأيت البخل يزري بأهله فأكرمت نفسي أن يقال بخيل

وقال صالح بن عبد القدوس :

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ويستره عنهم جميعا سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فإنني أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه

وقد قلت :

الإِحْسَانُ أَصْلُ الْخَيْرِ فِي الدَّارَيْنِ وَالْبُخْلُ أَصْلُ الشَّرِّ فِي هَاتَيْنِ
قَالَ عَلاَ : أَمَّا مَنَ اعْطَى الآيَةْ ذَكَرَهُ السَّيِّئُ وَهُو آيَةْ

وقلت أيضا :

أَحْسَنُ خُلُقِ الْمَرْءِ فِي ٱلْمُعَامَلَةْ لِلْحَقِّ فِي الرِّضَا مَعَ التَّسْلِيمِ لَهْ
وَفِي مُعَامَلَتِهِ لِلْخَلْقِ عَفْوٌ مَعَ السَّخَا أَجَلُّ خُلُقِ

---

(74) الطلاق 03.

(75) مجمع الزوائد والطبراني.

وَٱصْرِفْهُ فِي الْكُتْبِ وَالِاسْتِكْتَابِ لِلْعَوْنِ بِالْآلَاتِ وَالْأَسْبَابِ

«واصرفه في» شراء «الكتب و» في «الاستكتاب» أي طلب الكتابة من الغير بإعطاء المال «للعون» أي ليكون ذلك عونا على التعلم والتفقه «بالآلات والأسباب» أي باشتراء آلات العلم وأسبابه. اليوسي : قد علمت مما مر أن الحفظ قد انتقص، بل ذهب في كثير من الناس، وغلب النسيان، وأنه لابد من تقييد العلم بالكتب كما وقع في الكتاب وكان ذلك في الحديث وما يسمع ثم صار في المصنفات وصار العلم كله إلى الدفاتر إلا قليلا، وصار العالم هو ذو الملكة في تحقيق ما فيها والخبرة بمظان ما يراجع منها، وأضحت الكتب آلة لصاحب العلم عالما كان أو متعلما، وسلاحا وخزانة، ومن لم تكن له كان أعزل، فينبغي له حينئذ — وهو من أهم الأمور — تحصيلها إما بالملكية — وهي أولى — وإما بالعارية، فإن تعذر الملك فلينسخ أو لينتسخ إن أمكن وهو أولى. انتهى باختصار.

وقال الفاكهاني في آداب المتعلم والمعلم ما نصه : وأن يعتني بتحصيل الكتاب ولا يرضى بالاستعارة مع إمكان تحصيله ملكا فإن استعار لم يبطأ به؛ لئلا يفوت الانتفاع على صاحبه، ولئلا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولئلا يمتنع من إعارة غيره. وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نظما ونثرا منها عن الزهري : إياك وغلول الكتب وهو حبسها عن أصحابها. وفي فتاوي الهيتمي : ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه بشراء وإلا فبإجارة أو عارية، ولا يشتغل بنسخ شيء منها إلا ما يتعذر تحصيله بغير النسخ، ولتكن همته بالتصحيح أكثر من التحسين، وتسن إعارتها حيث لا ضرر، وقيل تكره ولا وجه له، كيف وفيها من الإعانة على العلم والخير ما لا يخفى ؟

قال المناوي : وجعل بعضهم حبس كتب العلم من صور الكتم — سيما إن عزت نسخه.

فائدة : قد قلت :

نَاسِخُ عِلْمٍ نَافِعٍ مَا بَقِيَا ذَا الْخَطُّ أَجْرُهُ لَهُ قَدْ أُجْرِيَا
وَأَجْرُ مَنْ كَتَبَهُ أَوْ عَمِلَا بِهِ وَأَجْرَ مَنْ قَرَاهُ تُـوِّلَا

كَـانَ ثَلاثُمِائَـةٍ مِنْ وُكَـلاَ لِبَعْضِهِمْ فِي الْمَالِ ثُمَّ آسْتَكْمَلاَ
إِنْفَاقَـهُ فِـي هَـذِهِ الأَسْبَـابِ وَلَبِسَ الخَلَـقَ مِـنْ ثِيَـابِ
وَإِذْ أَبُو يُوسُفَ رَاءَهُ كَـذَا أَهْدَى نَفِيساً فَأَبَى أَنْ يَأْخُذَا
فَقَـالَ عُجِّـلَ لَكُـمْ وَأُجِّـلاَ لَنَـا لَعَلَّـهُ رَأَى إِنْ قَبِـلاَ
مَذَلَّـةَ النَّفْسِ بِأَخْـذِ الْمِنَّـهْ وَإِنْ يَكُ الْقَبُولُ هُوَ السُّنَّهْ

وَهَكَذَا الْوِزْرُ عَلَى مَنْ نَسَخَـا مَا فِيهِ إِثْمٌ مِثْلَ ذَاكَ رَسَخَـا
كَمَـا الْمَنَـاوِيُّ عَزَا لِلْمُنْـذِرِي نَاهِـيكَ مِـنْ مُـبَشِّرٍ وَمُنْـذِرِ

وقلت أيضا :

وَغَلَطـاً فِـي مُصْحَـفٍ تُلْفِيـهِ أَصْلِحْهُ حَتْماً دُونَ إِذْنٍ فِيـهِ
مِنْ مَالِكٍ وَفِي ٱلْكِتَـابِ ذَلِكْ يَجُوزُ مَهْمَا يَرْضَ ذَاكَ الْمَالِكْ
أَوْ يَرْضَ مَوْقُـوفٌ عَلَيْهِ عُيِّنَـا وَلَمْ يُعَبْ إِصْلاَحُهُ إِذْ أُمْكِنَـا
وَمَا يُرَى وَقْفاً عَلَى مَنْ يَنْتَفِعْ بِـهِ فَـالإِصْلاَحُ لَـهُ لاَ يَمْتَنِـعْ
مِـنْ مُتَأَهِّـلٍ وَإِنْ يُسْتَـأْذَنِ نَاظِـرُهُ فَـذَا مِـنَ ٱلْمُسْتَحْسَنِ
ذَا لِفَتَـاوِي الْهَيْتَمِـيِّ يَنْتَمِـي فَانْظُرْ تَجِدْهُ فِي فَتَاوِي ٱلْهَيْتَمِي

«كان ثلاثمائة من وكلا لبعضهم» وهو محمد بن الحسن **«في المال»** لكثرته **«ثم استكملا إنفاقه»** كلا **«في هذه الأسباب»** من اشتراء الكتب وإعطاء الأجرة للمعلم وغيره لتحصيل العلم والفقه **«ولبس الخلق»** أي البالي **«من ثياب وإذ أبو يوسف راءه»** أي أبصره هـ **«كذا»** أي في ثوب خلق **«أهدى»** له ثوبا **«نفيسا فأبى أن يأخذا»** منه ذلك النفيس **«فقال»** فاعل الأفعال الثلاثة ضمير يرجع على بعضهم **«عجل لكم»** المال في الدنيا **«وأجلا لنا»** أي أخر المال وادخر لنا في الآخرة **«لعله رأى إن قبلا»** ما أهدي له **«مذلة النفس»** مفعول رأى أي حصول المذلة لنفسه **«بأخذ»** تلك **«المنه»** النعمة **«وإن يك القبول»** للهدية **«هو السنه»** وقد قلت :

هَدِيَّـةٌ فِيهَـا الْقَبُـولُ سُنَّـهْ وَرَدُّ مَـا تَكُـونُ فِيـهِ مِنَّـهْ
أَوْلَى فَإِنْ تَعْظُمْ بِبَعْضٍ رُدَّ مَا تَعْظُـمُ فِيـهِ لِلْغَزَالِي ذَا ٱنْتَمَى

فَفِي ٱلْحَدِيثِ لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَضَعَ نَفْسَهُ بِحَيْثُ تُمْتَهَـنْ
وَكُنْ عَنِ الطَّمَعِ عَالِيَ الْهِمَمْ فَهُوَ فَقْرٌ قَالَهُ خَيْـرُ الأُمَـمْ

«ففي الحديث ليس للمؤمن أن يضع نفسه بحيث تمتهن» أي تبتذل وتهان، ولفظه : (ليس للمؤمن أن يذل نفسه)(76) أي يجعلها ذليلة بإيقاعها في موقع المذلة والاستذلال. «وكن عن الطمع» في أموال الناس «عالي الهمم فهو فقر قاله خير الأمم» عليه السلام ولفظ الحديث : (إياك والطمع فإنه فقر حاضر)(77) وذلك لأن من طمع في الزيادة مع وجود ماله كان فقيرا عاجلا. قال في البيان : إذا كثر طمع الرجل وتطلبه للحاجات فهو بذلك في حكم الفقير ـــ وإن كان ذا مال ـــ؛ إذ ليس الغنى من الكثرة وإنما الغنى غنى النفس؛ لأن فائدة المال في الدنيا أن يستغني به عن الناس فإذا لم يستغن عنهم فهو في حكم الفقير، وإذا استغنى الفقير عن الناس بغنى نفسه فهو في حكم الغني بالمال. ولقد أحسن من قال :

تقنع بما يكفيك واستعمل الرضى فإنك لا تدري أتصبح أو تمسي
فليس الغنى عن كثرة المال إنما يكون الغنى والفقر من قبل النفس

الشرقاوي : الطمع من أعظم العيوب القادحة في العبودية، بل هو أصل جميع الآفات؛ لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم، وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه، وسببه الشك في المقدور، ولذا قال بعضهم : لو قيل للطمع : من أبوك ؟ لقال : الشك في المقدور ! ولو قيل : ما حرفتك ؟ قال : اكتساب الذل ! ولو قيل : ما غايتك ؟ قال : الحرمان !!، فالطامع لا محالة فاسد الدين. قال في التنوير : وتفقد وجود الورع من نفسك أكثر مما تتفقد ما سواه، وتطهر من الطمع في الخلق فلو تطهر الطامع فيهم بسبعة أبحُرٍ ما طهره إلا اليأس منهم ورفع الهمة عنهم. قال في لطائف المنن : الطمع ثلاثة أحرف كلها مجوفة، فهو بطن كله، فلذلك صاحبه لا يشبع أبدا !!.

(76) إتحاف.

(77) إتحاف.

كَانَ تَعَلُّمُ الْوَرَى الصِّنَاعَهْ   مِنْ قَبْلِ عِلْمِ خِيفَةَ الطَّمَاعَهْ
وَطَالِبُ الْغِنَى بِنَاسٍ نَاسِ   فَقْرَ مَنِ آسْتَغْنَى بِمَالِ النَّاسِ
ذُو الْعِلْمِ لاَ تَبْقَى لَهُ مَعَ الطَّمَعْ   حُرْمَتُهُ وَالْقَوْلَ بِالْحَقِّ يَدَعْ
تَعَوُّذَ النَّبِيُّ وَهْوَ الْمُتَّبَعْ   مِنْ طَمَعٍ مُقَرِّبٍ إِلَى طَبَعْ

«كان» في الزمان الأول **«تعلم الورى الصناعه»** بالكسر الحرفة **«من قبل»** تعلم **«علم خيفة الطماعه»** في الناس بقناعتهم بما يحصل من الحرفة **«وطالب الغنى بناس»** أي بمالهم **«ناس»** : لم يتذكر **«فقر من استغنى بمال الناس»** ففي الحكمة : من استغنى بمال الناس افتقر أي يكون فقيرا، ولقد أجاد من قال :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس   واقنع بعز فإن العز في الياس
واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم   إن الغني من استغنى عن الناس

ومن كلام علي رضي الله عنه : أنعم على من شئت تكن أميره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره. وللعلامة محمد مولود بن أحمد فال رحمهما الله تعالى :

تسببوا فإن في الأسباب   سبع فوائد من الوهاب
منهن صون بهجة الإيمان   عن طبع الطمع في الإنسان
شاغلة لكم عن العصيان   داعية لطاعة الديان
صون وجوهكم عن ابتذال   لدى لئام بخلا أنذال
فيها ذريعة إلى التعارف   بينكم والود والتآلف
تثبيت أفئدتنا إن لما   ضعفا فمهمى ناب خطب هالها
لو لم يقم قوم بها لما وجد   قوم تفرغوا لطاعة الصمد
تسببوا وامتثلوا أمر النبي   في قوله وأجملوا في الطلب
لا تتوجهوا بكل الهمة   منهمكين في ابتغاء العيشة

«ذو العلم لا تبقى له مع الطمع» الكثير **«حرمته»** أي حرمة العلم بسبب الابتذال وعرض الاحتياج إلى الأدنى **«والقول»** والحكم **«بالحق يدع»** ولكونه يفضي لما ذكر **«تعوذ النبي»** عليه السلام **«وهو المتبع من طمع مقرب إلى طبع»**

وَلاَ تَخَفْ أَوْ تَرْجُ إلاَّ الْحَقَّا مَنْ يَعْصِ خَوْفَ الْخَلْقِ خافَ الْخَلْقَا

أي شين وعيب، ففي الحديث : (اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع ومن طمع في غير مطمع)[78] وفيه : (استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع)[79]. وفي الإحياء قال عبد الله بن سلام لكعب : ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها ؟ قال : الطمع وشره النفس وطلب الحوائج. وقال رجل للفضيل : فسر لي قول كعب.. قال : يطمع الرجل في الشيء فيطلبه فيذهب عليه دينه وأما الشره فشره النفس في هذا وفي هذا حتى لا تحب أن يفوتها شيء وتكون لك إلى هذا حاجة وإلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خزم أنفك وقادك حيث شاء واستمكن منك وخضعت له فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به وعدته إذا مرض، ولم تسلم عليه لله عز وجل ولم تعده لله فلو لم تكن لك إليه حاجة كان خيرا لك. ثم قال : هذا خير لك من مائة حديث عن فلان وفلان.

وفي التنوير : وليس يدل على فهم العبد كثرة علمه ولا مداومته على ورده.. إنما يدل على فهمه ونوره غناه بربّه وانحياشه إليه بقلبه وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع.

فائدة : قد قلت :

تَعَوَّذَ النَّبِيُّ عَالِي الْقَدْرِ مِنْ نَحْوِ كُفْرٍ وَعَذَابِ قَبْرِ
وَذَا التَّعَوُّذُ لِكَيْ يُعَلِّمَا أُمَّتَهُ فَاللَّهُ فَاطِرُ السَّمَا
أَمَّنَهُ مِنْ ذَاكَ أَوْ تَعَوُّذَا هُوَ مَنَ أَنْ يَقَعَ لِلأُمَّةِ ذَا
وَذَاكَ أَفْشَى سِرَّهُ الْعَيَّاشِي عَلَى الْوَظِيفَةِ فَصَارَ فَاشِ

«ولا تخف أو» أي ولا **«ترج إلا الحقا»** عز وجل **«من يعص»** الله **«خوف الخلق»** فقد **«خاف الخلقا»** ومن عصاه جل رجاء من الخلق فقد رجا غيره جل.

(78) المغني عن حمل الأسفار للعراقي.

(79) أحمد والحاكم.

لِلدَّرْسِ كُنْ مُعَيِّناً مِقْدَارَا مِنْ عَدَدٍ تُبْلِغُهُ تَكْرَارَا
لاَ يَسْتَقِرُّ دُونَهُ وَأَمْسِ لِدَرْسِهِ كَرِّرْ بِقَدْرِ خَمْسِ
وَأَرْبَعاً مَا قَبْلَهُ فِي الْعَدَدِ وَهَكَذَا انْقُصْ رَاجِعاً لِلْمُفْرَدِ
بِقُوَّةٍ وَبِنَشَاطٍ كَرِّرِ وَلِلْمُخَافَتَةِ فِيهِ فَذَرِ
فَاجْهَرْ وَلاَ تَجْهَدْ لِكَيْ لاَ تَنْقَطِعْ الأَوْسَاطُ خَيْرِيَّتُهَا بِهَا قُطِعْ

وقد قلت :

وَأَصْلُ كُلِّ الشَّرِّ خَوْفُ الْخَلْقِ رضى عن النفس وَهَمُّ الرِّزْقِ

«للدرس» والسبق **«كن معينا مقدارا من عدد تبلغه»** إعادة و**«تكرارا»** له **«لا يستقر»** ذلك الدرس في الذهن، ولا يستقر قلبك **«دونه»** حتى تبلغ ذلك المقدار الذي عينت **«وأمس لدرسه كرر بقدر خمس»** مرات **«و»** كرر **«أربعا ما قبله في العدد»** فتكرر درس اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات، والذي قبله ثلاثا، والذي قبله ثنتين، والذي قبله واحدة.. كما قال : **«وهكذا انقص»** حال كونك **«راجعا»** حتى تنتهي **«للمفرد»** أي للواحد. **«بقوة وبنشاط»** أي سرور وطيب نفس **«كرر وللمخافتة فيه»** أي لإسرار النطق في التكرار **«فذر فاجهر ولا تجهد»** نفسك، جهدها كمنع وأجهدها : بلغ جَهدها بالفتح ويضم أي طاقتها **«لكي لا تنقطع»** عن التكرار، فخير ذلك ما كان بين الجهر والإسرار؛ إذ **«الاوساط خيريتها بها قطع»** ففي الحديث : (خير الأمور أوساطها)[80] جمع وسط. زرّوق : قاعدة : التشديد في العبادة منهي عنه كالتراخي عنها، والتوسط أخذ بالطرفين، فهو أحسن الأمور كما جاء (خير الأمور أوسطها)[81] ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يُقْتِرُوا... الآية﴾[82] ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا... الآية﴾[83] وقال عليه السلام : (أما أنا فأقوم وأنام وأصوم وأفطر...

(80) البيهقي في السنن.

(81) البيهقي في السنن.

(82) الفرقان 72.

(83) الإسراء 110.

كَانَ أَبُو يُوسُفَ وَهْوَ الْقُدْوَهْ   لِلْفُقَهَــا مُنَاظِــراً بِقُــوَّهْ
مَعَ شَدِيـدِ جُوعِـهِ الطَّوِيــلِ   وَٱحْذَرْ مِنَ الْفَتْرَةِ فِي ٱلتَّحْصِيلِ
وَٱحْفَظْ لِفِقْهٍ نُسْخَةً لِتَحْظَى   تَيْسِيرَ مَا سَمِعْتَ مِنْهُ حِفْظَا

فصل في التوكل

لاَ تَشْتَغِلْ بِطَـلَبِ الأَرْزَاقِ   بَلْ فَوِّضِ الأَمْرَ إِلَى الرَّزَّاقِ

الحديث)(84) وكان يقوم من اليل نصفه وثلثه إلى ثلثيه، وهو الوسط باعتبار من يأتي على كله أو لا يقوم منه إلا اليسير، وكذلك رد عبد الله ابن عمر للوسط بصيام نصف الدهر وقيام نصف اليل وختم القرآن في سبع.. إلى غير ذلك، فلزم التوسط في كل مكتسب؛ لأنه أرفق بالنفس وأبقى للعبادة. **«كان أبو يوسف وهو القدوه»** أي الإسوة **«للفقها مناظرا بقوه»** ونشاط **«مع شديد جوعه الطويل»** نحو خمسة أيام **«واحذر من»** التحير والاضطراب و**«الفترة»** بالفتح، فتر يفتر ويفتر سكن بعد حدة ولان بعد شدة **«في»** زمان **«التحصيل»** فإنه آفة مانعة له. قال في المدخل : وينبغي لطالب العلم أن يكون مواظبا على الاشتغال فإن الترك مضر ولو قل. وقد كان سيدي أبو محمد رحمه الله تعالى ينقل عن شيخه أبي الحسن الزيات ما معناه إذا ترك الطالب الاشتغال يوما كأنه تركه سنة، وإن تركه يومين كأنه تركه سنتين، وإن تركه ثلاثة لا يجيء منه شيء.

وما قاله بين ألا ترى أن الكاتب خطه في يوم الخميس أحسن منه في يوم السبت ؟ وما ذلك إلا لترك الكتب يوم الجمعة. انتهى منه.

«و» إذا أردت أن تحصل علم الفقه فـ**«احفظ لفقه نسخة»** واحدة من نسخه **«لتحظى»** بعد حفظها **«تيسير ما سمعت منه حفظا»** أي لتظفر بتيسير حفظ ما تسمع منه، حظي به كرضي ظفر وسعد.

ــ وبالله تعالى التوفيق ــ.

«فصل في التوكل» أي تفويض الأمر إلى الله تعالى **«لا تشتغل»** أيها الطالب

---

(84) متفق عليه.

وَرَدَ مَنْ تَفَقَّهَ الْهَمَّ كُفِـي ... وَرِزْقُهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسَبْ يَفِي
لَمْ يَحْوِ مَنْ بِالرِّزْقِ ذُو آشْتِغَالِ ... مَكَـارِمَ الأَخْـلاَقِ وَآلْمَعَالِـي

للعلم «بطلب الأرزاق» ولا تهتم لأمرها «بل فوض الأمر إلى الرزاق» وفي لطائف المنن عن المرسي رحمه الله تعالى أنه كان يقول : للناس أسباب وسببنا نحن الإيمان والتقوى، قال الله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا... الآية﴾[85] «ورد من تفقه» في دين الله أي من صار عالما بأحكام الشرع في دين الإسلام «الهم كفي» أي كفاه الله همه أي مقصوده «ورزقه من حيث لم يحسب» أي من مكان لا يظن الرزق منه «يفي» له وفى الشيء تم وكثر، ولفظ الحديث : (من تفقه في دين الله كفاه الله همه ورزقه من حيث لا يحتسب) قال العراقي : أخرجه الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزبيدي بإسناد ضعيف. نقله شارح الإحياء ثم قال : وأخرج أبو العباس المرهبي في فضل العلم من حديث زياد الصدائي رفعه (من طلب العلم تكفل الله برزقه) إلى أن قال أيضا : وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن مسعود رفعه : (من جعل الهم هما واحدا هم آخرته كفاه الله عز وجل ما همه من أمر دنياه) وأخرجه الرافعي من طريق أبي يوسف عن أبي حنيفة وهو عادل شاهد لحديث ابن جزءٍ والله أعلم. انتهى منه باختصار.

ونقل العياشي وغيره أنه كان العلماء يوصي بعضهم بعضا بثلاثة ويكتب بها بعضهم إلى بعض وهي هذه : من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته.

أبو عمر : قال بعضهم : على قدر هيبتك لله يخافك الخلق، وعلى قدر محبتك لله يحبك الخلق، وعلى قدر اشتغالك بالله تشتغل الخلق بأشغالك.

«لم يحو من» هو «بالرزق» أي بأمره من قوت وكسوة «ذو اشتغال مكارم الأخلاق والمعالي» معالي الأمور أي أشرافها وخيارها؛ لعدم تفرغه لتحصيلها. «دع

---

(85) الأعراف 95.

دَعِ الْمَكَارِمَ فَلاَ تَرْحَلْ لَهَا   يَا طَاعِماً كَاسٍ تُرِيدُ نَيْلَهَا
وَلْتَشْغَلِ النَّفسَ بِخَيْرِ الْعَمَلِ   فَالنَّفسُ تَشْغَلُ إِذَا لَمْ تُشْغَلِ
وَالهَمَّ والْحُزْنَ لِذِي الدَّارِ فَدَعْ   فَإِنَّ مَا قَدَّرَهُ ٱللَّهُ يَقَعْ

المكارم فلا ترحل لها» أي لا تسافر لطلبها **«يا طاعما كاس»** قال في المواهب: رجل كاس أي ذو كسوة وطاعم أي ذو أكل، وهو مما يذم به أي ليس له فعل غير أنه يأكل ويشرب **«تريد نيلها»** فأنى يتيسر لك تحصيل المكارم وأنت مشغول بتحصيل الطعام والكسوة ؟ قال الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي ذو طعام وكسوة. اليوسي: من آداب الطالب أن يكون رأس ماله القناعة فيرضى باليسير من العيش والدون من اللباس والمسكن وغيره، وبالجملة يتمرن على الضيق ولا يهوله الفقر ولا سوء الحال، ولا تشْرَئِبُّ نفسه إلى الرفاهية في شيء، وإلا انتهض لجمع المال. والسعي في المال والسعي في العلم بحران لا يجتمعان.. من سلك أحدهما غرق فيه و لم يتفرغ للآخر.. إلى أن قال: وقد تنتهض بالطالب قريحة لطلب العلم على حاله فيكيده الشيطان ويقول له: لابد لك أن تسعى في قدر من المال تقيم به أودك أو تشتري به الكتب التي لا غنى لك عنها فيذهب لذلك فلا يقع على قدر من المال حتى تنطفىء تلك القريحة التي بها يتحرك، أو يستحلي المال فلا يستطيع فراقه. وقال في موضع آخر: الواجب على المرء إذا رزق رغبة في العلم وقريحة فيه أن يبادر إلى معانقته على ما كانت عليه حاله والاعتماد على الله تعالى في الإعانة وتيسير ما يحتاج إليه.

إذا هبت رياحك فاغتنمها   فإن لكل عاصفة سكون
وإن درت نياقك فاحتلبها   فما تدري الفصيل لمن يكون

«ولتشغل النفس بخير العمل» حتى لا تشتغل بهواها **«فالنفس تشغل»** باتباع مراداتها **«إذا لم تشغل»** و لم تستعمل في طلب المكارم **«والهم والحزن لذي الدار»** أي لأمرها **«فدع»** يا عاقل **«فإن ما قدره الله يقع»** لا محالة. وقد قلت:

لأَلَمٍ مِنْ فَوْتِ مَحْبُوبٍ أَلَمْ   بِالْقَلْبِ قِيلَ الْحُزْنُ وَالْهَمُّ وَغَمْ
لاَكِنَّهَا كَمَا الْمَنَاوِي يَنْقُلُ   أَشَدُّهَا غَمٌّ وَحُزْنٌ أَسْهَلُ

وَلَيْسَ يُجْدِي بَلْ يَضُرُّ بِالْبَدَنْ وَالْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَبِالسَّعْيِ الْحَسَنْ
أَمَّا مِنَ ٱلذُّنُوبِ مَا يُكَفِّرُهْ هَمُّ الْمَعِيشَةِ فَقَطْ فَخَبَرُهْ
مُرَادُهُ مَا لاَ يُخِلُّ بِعَمَلْ خَيْرٍ وَعَنْ حُضُورِ قَلْبٍ مَا شَغَلْ
فَإِنَّ ذَاكَ الْقَدْرَ مِنْ مَسَاعِي الأُخْرَى وَلِلْمَسْعَى لِلاُخْرَى دَاعِ
وَلْيُقَلِّلْ طَالِبٌ عَلاَئِقَهْ لِذَلِكَ الْغُرْبَةُ كَانَتْ لاَئِقَهْ

«**وليس يجدي**» ما ذكر من هم وحزن أي لا ينفع ولا يرد مصيبة «**بل يضر بالبدن**» ابن القيم : أربعة تهدم البدن : الهم والحزن والجوع والسهر. «**والقلب والعقل وبالسعي**» أي العمل «**الحسن**» شرعا؛ لانتفاء فراغ القلب. وقد أحسن ابن أبي حازم إذ يقول :

إذا أصبحت عندي قوت يومي فخل الهم عني يا سعيد
ولم تخطر هموم غد ببالي لأن غدا له رزق جديد
أسلم إن أراد الله أمرا وأترك ما أريد لما يريد
وما لإرادتي وجه إذا ما أراد الله لي ما لا أريد

«**أما**» قوله عليه السلام : إن «**من الذنوب ما يكفره هم المعيشة فقط**» ولفظ الحديث : (إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها إلا هم المعيشة)(86) «**فخبره**» أي فالخبر الذي ورد في ذلك الهم «**مراده ما**» أي هم «**لا يخل بعمل خير وعن حضور قلب**» في الصلاة «**ما شغل فإن ذاك القدر**» اليسير من الهم «**من مساعي الاخرى**» لتوقف أعمالها عليه «**وللمسعى للأخرى داع**» ووسيلة فلا تحصل الأعمال إلا بالمعيشة «**وليقلل طالب**» للعلم «**علائقه**» جمع علاقة بكسر العين فيقطع العلائق الدنيوية عنه بقدر الطاقة؛ ليتفرغ قلبه ويكون همُّه هما واحدا، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق، ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر، والفكرة مهما توزعت تكون كجدول يفرق ماؤه فينشفه الحر وتشربه.الأرض فلا يقع به نفع، وإن جمع بلغ المزروع فانتفع به، ولذا كرهوا

---

(86) إتحاف.

للمتعلم الاشتغال بدرسين في علمين مستقلين؛ لئلا تتوزع الفكرة. ومن الانتقال من فن إلى فن آخر قبل استكمال الأول. انظر الإحياء وشرحه. **«لذلك»** أي لأجل تقليل العلائق **«الغربة كانت لائقه»** بالطالب فقد اختارها العلماء؛ لأن الغريب تقل علائقه بانقطاعه واعتزاله عن الخلق، وقد قال بعضهم : لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه وخرب بستانه وهجر إخوانه ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته. وكان بعض المشائخ يحض تلميذا له على هذا المعنى حتى بلغ أن قال له : اصبغ ثوبك؛ لئلا يشغلك الفكر في غسله. وقد قال بعض الفقهاء :

لو كلفت شراء بصلة ما فهمت مسألة. وللشافعي في الغربة :

سأطلب علما أو أموت ببلدة ... يقل بها قطر الدموع على قبري
وليس اكتساب العلم يا نفس فاعلمي ... بميراث آباء كرام ولا صهر
ولكن فتى الفتيان من راح واغتدى ... ليطلب علما بالتجلد والصبر
فإن نال علما عاش في الناس سيدا ... وإن مات قال الناس بالغ في العذر

وله أيضا :

تغرب عن الأوطان في طلب العلى ... وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة ... وعلم وآداب وصحبة ما جد

اليوسي : اعلم أن للرحلة فوائد كثيرة، منها التخلص عن شواغل الوطن وفتنته الشرية والخيرية، ومنها التجرد لأخذ العلم الذي هو شرطه، ومنها الغربة التي هي مظنة عدم الألفة والخلطة ومعاشرة الناس التي هي إحدى العوائق، ومنها ما يرجو من ثواب خطواته ومشقته وبركة ذلك في العلم والعمل عاجلا وآجلا، ومنها ما يرجو من التيسير واتساع الرزق بمقتضى الوعد الصادق قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ... الآية﴾[87] ومنها ما يرجو من اعتناء الشيوخ به أكثر فإن للغريب والقاصد والراحل من أرض إلى أرض مزيد حق، ومنها ـــ وهو أعظمها ـــ امتحان نفسه ليظهر صدقها، ومنها ما يستفيد بالسفر والاغتراب من الأخلاق الحسنة والرياضات المستحسنة والتجاريب البينة. انتهى منه باختصار.

---

(87) النساء 99.

وَلْيَتَحَمَّلْ نَصَباً مُوسَى طَلَبْ وَقَدْ لَقِي مِنْ سَفَرِ الْعِلْمِ نَصَبْ
فَطَلَبُ الْعِلْمِ عَظِيمٌ أَفْضَلاَ مِنْ غَزَوَاتٍ عِنْدَ جُلِّ الْفُضَلاَ
وَالأَجْرُ قَدْرَ تَعَبٍ وَنَصَبِ فَاصْبِرْ لِلَذَّةٍ تَفُوقُ تُصِبِ

«وليتحمل نصبا» أي تعبا، فلا ينال العلم من أراده براحة الجسم **«موسى»** عليه السلام **«طلب»** العلم **«وقد لقي من سفر العلم نصب»** كما قال تعالى إخبارا عنه عليه السلام ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾(88). اليوسي : يروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد ثم اطلب العلم والعبر حتى تخلق نعلاك وتنكسر عصاك، ومن ذلك رحلته — على نبينا وعليه الصلاة والسلام — إلى الخضر، وقد ارتحل الإمام الشافعي إلى إمامنا مالك بالمدينة فتفقه عليه، وارتحل يحيى بن يحيى وغيره من الأندلسيين إلى المدينة فأخذوا عن مالك، وكذا ابن القاسم وغيره من المصريين، وهو — أو غيره ؟ — القائل يخاطب أهله :

أقول لها والعيس تسرج للنوى أعدي لفقدي ما استطعت من الصبر
أليس من الخسران أن لياليا تمر بلا نفع وتحسب من عمر

«فطلب العلم» أمر **«عظيم»** فكذا سفره **«أفضلا من غزوات عند جل الفضلا»** قال في البيان : روي عنه عليه السلام أنه قال : (ما أعمال البر كلها في الجهاد إلا كبصقة في بحر وما أعمال البر كلها والجهاد في طلب العلم إلا كبصقة في بحر)(89) فنص في هذا الحديث على أن طلب العلم أفضل من الجهاد، ومعناه في الموضع الذي يكون فيه الجهاد فرض كفاية إذا كان قد قيم به؛ لأنه حينئذ نافلة، وأما القيام به في موضع يتعين فيه على الأعيان فلاشك أنه أفضل من طلب العلم. انتهى منه باختصار.

قال في المدخل : تبين من هذا الحديث أن أعظم أعمال الآخرة إنما هو طلب العلم. **«والأجر قدر تعب ونصب»** فأي سفر يكون التعب والنصب فيه أشد

(88) الكهف 62.

(89) تقدم.

فثوابه يكون أكثر. قال الشيخ زروق: الأجر على قدر الاتباع، ولو كان على قدر المشقة لزم أن يكون شيء من الأعمال أفضل من الإيمان والمعرفة والذكر وهذه أفضل إجماعا، وقوله عليه السلام: (أجرك على قدر نصبك)(90) خاص في خاص فلا يحتج به.

ونقل الحطاب عن ابن الإمام أن الله تعالى لم يطلب من عباده المشاق، لأن القرب كلها تعظيم وتوقير، وليس عين المشاق تعظيما ولا توقيرا، وإنما طلب منهم تحصيل المصالح، فإن لم تحصل إلا بمشقة عظم الأجر. انتهى باختصار. وعلى هذا يحمل (أجرك على قدر نصبك) قاله سيدي إدريس بن أحمد الوزاني. «**فاصبر**» على التعب والنصب «**فللذة تفوق نصب**» أي تعب، فلا كمال ولا لذة فوق كمال العلم ولذته، ولا شقاوة ولا نقصان فوق شقاوة الجهل ونقصانه. ومما يدل على ما قلناه أنه إذا سئل الواحد منا عن مسألة علمية فإن علمها وقدر على الجواب والصواب فيها فرح بذلك وابتهج به، وإن جهلها نكس رأسه حياء من ذلك. وذلك يدل على أن اللذة الحاصلة بالعلم أكمل اللذات، والشقاء الحاصل بالجهل أكمل أنواع الشقاء. انظر تبصرة الأنام.

وللزمخشري كما في شرح الشيخ الطيب:

سهري لتنقيح العلوم ألذُّ لي ... من وصل غانية وطيب عناق
وألذ من نقر الفتاة لدفها ... نقري لألقي الرمل عن أوراقي
وتمايلي طربا لحل عويصة ... أشهى وأحلى من مدامة ساق
وصرير أقلامي على أوراقها ... أحلى من الدوكاء والعشاق
يا من يحاول بالأماني رتبتي ... كم بين مستفل وآخر راق
أأبيتُ سهران الدجى وتبيته ... نوما وتأمل بعد ذا إلحاقي؟

ومما ينسب للقاضي عبد الوهاب:

سأجعل فضل ثوبي في كتاب ... وألتزم التقشف في ثيابي
لعمري إن درسا في كتاب ... ألذ من المطاعم والشراب
ومن فرش الحرير ولبس خز ... وأشهى من ملامسة الكعاب

---

(90) تلخيص الحبير لابن حجر.

فصل في وقت التحصيل

أُطْلُبْ مِنَ الْمَهْدِ لِلَحْدٍ فَالْحَسَنْ ... عِنْدَ الثَّمَانِينَ ابْتَغَى الْفِقْهَ الْحَسَنْ
مِيماً عَلَى فِرَاشِهِ مَا نَامَـا ... ثُـمَّتَ أَفْتَـى أَرْبَعِيـنَ عَامَـا

ومن زهر الرياض إذا تناهـى ... وسال عليه تسكـاب السحـاب

وقال الماوردي : إن العلم عوض من كل لذة ومغن عن كل شهوة، ومن كان صادق النية فيه لم يكن له همة فيما يجد بُدّاً منه. وقال بعض البلغاء : من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفتنه سلوة، ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الإخوان. وقال بعض العلماء : لا سمير كالعلم ولا ظهير كالحلم. وقال اليوسي : إن إدراك العلم له لذة ونشوة تستفز العقل أكثر مما يستفزه الخمر، وتحدث فيه جرءة وصولة فيدعي كما قيل : جرعة الجنان تطلق اللسان، فيجب الحذر من ذلك فقد قيل : الدعوى قبيحة ولو كانت صحيحة، وللدعوى عقوبة عاجلة وهي الحرمان والفضيحة، ولذا يقال : إن قلت لا أدري علموك حتى تدري، وإن قلت : أدري سألوك حتى لا تدري. وقال الشاعر :

من تحلى بغير ما هـو فيـه ... فضحتـه شواهـد الإمتحـان
وجرى في العلوم جري سكيت ... خلفتـه الجيـاد يـوم الرهـان

«**فصل في وقت التحصيل، اطلب من المهد للحد**» أي من وقت الصغر إلى الموت «**فالحسن**» بن زياد تلميذ أبي حنيفة «**عند**» بلوغ «**الثمانين**» سنة «**ابتغى الفقه الحسن**» أي طلبه «**ميما على فراشه ما ناما**» أي ولم ينم على الفراش أربعين سنة «**ثمت أفتى**» بعد ذلك «**أربعين عاما**» فصار جميع عمره مائة وستين سنة، فظهر من هذا أن طلب العلم لازم — ولو بلغ العمر الثمانين — وأفضل أوقات الطلب شرخ الشباب.

اليوسي : يروى عن النبي عليه السلام أنه قال : (إذا جاء الموت طالب العلم وهو على تلك الحال مات شهيدا)[91] وعن ابن عباس رضي الله عنهما :

---

(91) إتحاف.

وَاسْتَغْرِقِ الأَوْقَاتَ فِيهِ فَـإِذَا مَلِلْتَ نَوْعاً فَانْتَقِلْ لِغَيْرِ ذَا
فَهكَذَا كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَعَلْ يَقُولُ بِالدِّيوَانِ هَاتُوا إِنْ يَمَلْ

منهومان لا يشبعان ولا تنقضي نهمتهما؛ طالب العلم وطالب دنيا، وقد يرفع حديثا. وقيل لابن المبارك : إلى متى تطلب العلم ؟ قال : إلى الممات إن شاء الله !. وقيل له ذلك مرة أخرى فقال : لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد. وقيل لأبي عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ قال مادام تحسن به الحياة. وقيل لسفيان بن عيينة : من أحوج الناس إلى طلب العلم ؟ قال : أعلمهم؛ لأن الخطأ منه أقبح. وقال بعضهم : لاتزال عالما ما كنت متعلما فإذا استغنيت كنت جاهلا. وفي المدخل قيل : العالم عالم ما كان يرى أنه جاهل، فإذا رأى نفسه أنه عالم فقد جهل، بل مسترشد متعلم.. يقعد مع إخوانه يرشدهم ويسترشد منهم، ويعلمهم ويتعلم منهم. **«واستغرق الأوقات فيه»** أي في طلب العلم **«فإذا مللت نوعا فانتقل لغير ذا»** فإن لكل علم لذة تغاير لذة العلم الآخر.

«فهكذا كان ابن عباس» رضي الله عنهما **«فعل يقول بالديوان هاتوا»** أي إيتوا **«إن يمل»** اليوسي : كان بعض السلف إذا مل يقول : هاتوا من أشعاركم، فإن الأذن مجاجة، والنفس حمضة فأفيضوا مما يخفف علينا، وقال الشاعر :

أفد طبعك المكدود بالجد راحة يجم وعلله بشيء مــن المزح
ولكن إذا اعطيته المزح فليكـن بقدر الذي يعطى الطعام من الملح

وقال علي كرم الله وجهه : أجموا هذه القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان. وقال أبو العتاهية :

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حـال
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبر فيها وأمثال

وطباع الناس وقوتهم مختلفة في هذا، فرب إنسان محتاج إلى تجميم النفس وإراحتها أكثر من غيره، فليعمل كلٌّ على طبيعته وقوته.

الماوردي : قال يحيى ابن خالد لابنه : عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فإن المرء عدو ما جهل، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم، وأنشد :

كَذَلِكَ ابْنُ الْحَسَنِ السَّامِي النَّظَرْ   إِنْ مَلَّ مِنْ نَوْعٍ بِآخَرَ نَظَرْ
كَانَ يَقُولُ النَّوْمُ مِنْ حَرَارَهْ   مُدَافِعاً بِبَارِدِ الْمَا نَارَهْ

فصل في الشفقة والنصيحة

كُنْ مُشْفِقاً وَنَاصِحاً لاَ ذَا حَسَدْ   وَمَا النِّزَاعُ وَالخِصَامُ بِالأَسَدْ

تفنن وخذ من كل فن فإنما   يفوق امرؤ في كل علم له علم
فأنت عدو للذي أنت جاهل   به ولعلم أنت تتقنه سلم

«**كذلك**» محمد «**ابن الحسن السامي النظر**» كان لا ينام الليل ويضع عنده دفاتر، فـ«**إن مل من نوع بآخر نظر**» ليزيل ملالته، و«**كان**» يضع عنده ماء، و«**يقول النوم من حراره**» حال كونه «**مدافعا**» عنه «**ببارد الما ناره**».

«**فصل في الشفقة والنصحية، كن**» يا صاحب العلم «**مشفقا**» أي ذا شفقة ومرحمة «**وناصحا**» أي مريدا للخير، وقد تقدم أن من وظائف المعلم أن لا يدع من نصح المتعلم شيئا فراجعه، وقد قال العلماء إن ابن المعلم يكون عالما ببركة اعتقاده وشفقته؛ لأنه يريد أن يكون تلاميذه علماء. وقد حد الخطابي النصيحة بأنها كلام يراد به الخير للمنصوح، وهو إظهار ما خفي من المراشد والمحامد في أسباب الدين والدنيا. وسياسة النصيحة أن تكون سرا وبتحرير نية وبرفق، وأن تكون بعد استشارة المنصوح، وبعد تمهيد البساط له، وأن يرى نفسه دون المنصوح، وأن يوطن نفسه على تحمل أذاه، ولا يندم على نصحه إذا آذاه. انظر شرح الخاتمة. «**لا ذا حسد**» أي غير مريد لزوال نعمة الغير، فالحسد يضر ولا ينفع. الماوردي : قال معاوية رضي الله عنه : ليس في خصال الشر أعدل من الحسد.. يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود. وقال بعض الحكماء : يكفيك من الحاسد أنه يغتم في وقت سرورك. «**وما النزاع والخصام بالأسد**» أي بالسديد، فينبغي أن لا تنازع أحدا ولا تخاصمه؛ لأن في ذلك تضييع الأوقات بصرفها فيما لا يجدي. وفي شرح الخاتمة عن سيدي زروق : كل من ادعى حالا مع الله تعالى

الإِحْسَانُ مَنْ يُحْسِنْ يَكُنْ جَزَاءَهْ وَفِي الْمَسَاوِي حَسْبُ ذِي الإِسَاءَهْ
كُنْ لِلْعُلَى فِي نَيْلِ عِلْمٍ رَائِمَا إِنْ شِئْتَ أَنْ تَلْقَى العَدُوَّ رَاغِمَا

ثم ظهرت منه إحدى خمس فهو كاذب أو مسلوب : إرسال الجوارح في المعاصي، والتصنع بطاعة الله، والطمع في خلق الله، والوقيعة في أهل الله، وعدم احترام المسلمين على الوجه الذي أمر الله به.. فقلما يختم له بالإسلام. «الاحسان من يحسن يكن» هو أي الإحسان «جزاءه» في مقابلة إحسانه «وفي المساوي حسب ذي الإساءه» يعني أن المسيء تكفيه قبائحه التي عملها فتتضرر نفسه بضرر تلك القبائح التي قصد بها ضرر الغير ويرجع وبالها إليه. قيل : من أراد أن يرغم عدوه فليكرر هذا البيت :

دع المرء لا تجزه على سوء فعله سيكفيك ما فيه وما هو فاعله

«كن للعلى» جمع عليا أي للمراتب العلى «في نيل علم رائما» أي طالبا «إن شئت أن تلقى العدو» حال كونك «راغما» ومحقرا إياه. قال :

إذا شئت أن تلقى عدوك راغما وتقتلـه غمـا وتحرقـه همّـا
فرم للعلى وازدد من العلم إنه من ازداد علما زاد حاسده غما

وقال آخر :

اصبر على مضض الحسو د فـإن صبرك قاتلـه
كالنـار تـأكل بعضهـا إن لم تجد مـا تأكلـه

ولأبي حيّان :

عـداتي لهم فضل عليّ ومنـة فلا أبعد الرحمٰن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليـا

وقال آخر :

ألا قـل لمن ظـل لي حـاسدا أتدري على من أسأت الأدب ؟
أسأت على الله في حكمـه لأنك لم ترض لي ما وهب !
فجـازاك عنـي بـأن زادني وسد علـيك وجـوه الطـلب

مَصَالِحُ النَّفْسِ إِذَا أَقَمْتَهَا مُشْتَغِلاً بِهَا الْعِدَى قَهَرْتَهَا
وَفِي مُعَادَاتِكَ أَيُّ مَقْتِ فَضِيحَةٌ وَضَيْعَةٌ لِلْوَقْتِ
تَحَمَّلِ الأَذَى وَجَوْراً سِيَّمَا مِنَ السَّفِيهِ وَعَنِ ابْنِ مَرْيَمَا
تَحَمَّلُوا مِنَ السَّفِيهِ وَاحِدَهْ كَيْ تَرْبَحُوا عَشْراً عَلَيْهَا زَائِدَهْ

«مصالح النفس إذا أقمتها» أي أديتها وحصلتها، حال كونك **«مشتغلا بها»** فإنك حينئذ **«العدى قهرتها»** فإقامة مصالح نفسك تتضمن قهر العدو؛ لأنه إذا رأى مصالحك حاصلة وأمورك منتظمة اغتم واضطرب أشد اضطراب فكان ذلك قهرا له. ولقد أحسن القائل :

دع الحسود وما يلقاه من كمده يكفيك منه لهيب النار في كبده
إن لمت ذا حسد فرجت كربته وإن صمت فقد عذبته بيده

«وفي معاداتك» للغير **«أي مقت»**: بغض، فهي **«فضيحة وضيعة للوقت»** بالشغل عن العبادة، وبتفريق الخواطر، فلا تقدر على تحصيل العلم فيضيع وقتك.

«تحمل الأذى وجورا سيما من السفيه» قال في شرح الخاتمة : قال الشاذلي : آذاني إنسان فضقت به ذرعا، فنمت فقيل لي : من علامات الصديقية كثرة الأعداء وعدم المبالاة بهم. وقال مسلم بن قتيبة : من أعظم المروءة الصبر على أذى الناس. وقال يحيى بن الحسين : من طلب السلامة احتمل الملامة. وقال الفضيل : بلغنا أن الله تعالى إذا أراد أن يتحف عبده سلط عليه من يظلمه. **«وعن ابن مريما»** : عيسى عليه السلام **«تحملوا من السفيه واحده كي تربحوا عشرا عليها زائده»** أي احتملوا من السفيه أذية واحدة كي تتخلصوا من عشر. يحكى عن الأحنف بن قيس أنه قال : ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال : إن كان أعلى مني عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه. وقد قلت ناظما من البيان :

لاَ تُغْرِ نَفْسَكَ مِنَ ٱلْحِلْمِ إِذَا أُوتِيتَ مِنْ عِلْمٍ نَصِيباً حَبَّذَا
عِلْمٌ إِذَا بِزِينَةٍ مِنْ حِلْمٍ يَزْدَانُ فَٱلْحِلْمُ لِبَاسُ ٱلْعِلْمِ

قَالَ بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْناً بَعْدَا قَرْنٍ فَلَمْ أَرَ الْوَفِيَّ عَهْـدَا
وَالسُّوءَ بِالْمُؤْمِنِ لاَ تَظُنَّـهْ فَمَـنْشَأُ الْعَـدَاوَةِ الْمَظِنَّـهْ
وَذَاكَ مِنْ سُوءِ السَّرِيرَةِ يَكُونْ إِنْ سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتِ الظُّنُونْ

«قال بلوت الناس» أي اختبرتهم وامتحنتهم **«قرنا بعدا قرن»** أي زمانا بعد زمان **«فلم أر»** فيهم **«الوفي عهدا»** ولفظ الشاعر:

بلوت الناس قرنا بعد قرن فلم أر غير ختال وقال
ولم أر في الخطوب أشد وقعا وأصعب من معاداة الرجال

وقوله: غير ختال وقال أي غير غدار ومبغض. ولبعضهم:

تغير إخوان هذا الزمان فكل خليل عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة وقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم فصرت أطالع باب البدل

ولابن عطاء الله:

لا تشتغل بالعتب يوما للورى فيضيع وقتك والزمان قصير
وعلام تعتبهم وأنت مصدق أن الأمور جرى بها المقدور؟
هم لم يوفوا للإله بحقه أتريد توفية وأنت حقير؟
واشهد حقوقهم عليك وقم بها واستوف منك لهم وأنت صبور
فإذا فعلت فأنت أنت بعين من هو بالحقائق عالم وبصير

«والسوء» بالنصب على الاشتغال **«بالمومن لا تظنه»** إذ لا يحل ذلك **«فمنشأ العداوة»** أي محل نشئها وحصولها هو **«المظنه»** أي ظن السوء **«وذاك»** أي ظن السوء **«من»** خبث النية و**«سوء السريرة»** أي السر وهو اسم لما يكتم **«يكون»** أي يحصل وينشأ **«إن ساء فعل المرء ساءت الظنون»** قال أبو الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته فأصبح في ليل من الشك مُظلم

قال في المدخل: سمعت ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى يقول: إذا مر عليك إنسان بجرة خمر ثم غاب عنك ورجع عريا عنها.. لا يحل لك أن تقول شربها،

وَعَنْ قَبِيحِ التَّنَحِّي أَحْزَمُ   وَذُو الْحِجَا مِنْ جَاهِلٍ لاَ يَسْلَمُ

ولا أوصلها لمن يفعل ذلك بها، وإنما تقول : الحمد لله الذي هداه وتاب عليه.. هكذا تكون نية المؤمن مع إخوانه المسلمين.. أعني هذه سبيله معهم مع عدم الخلطة، فيدخل إذ ذاك في قوله عليه الصلاة والسلام : (سلامة الصدر لا تبلغ بعمل) وأما مع الخلطة فالسنة سوء الظن حتى يتبين منهم سبب لتحسين الظن بهم، وعلى هذا حملوا قوله عليه الصلاة والسلام : (من الحزم سوء الظن) انتهى منه.

وقد قال زين بن اجَّمَدْ رحمه الله تعالى :

ما أمكن الحمل على الخير فذر   حملا على الشر كما قال عمر

«**وعن قبيح التنحي أحزم**» قال :

تنح عن القبيح ولا ترده   ومن أوليته حسنا فزده
ستكفي من عدوك كل كيد   إذا كاد العدو فلا تكده

«**وذو الحجا من جاهل لا يسلم**» أي لا يخلص من كيده ومكره للمعاداة الواقعة بينهما على ما ينبيء عنه : المرء عدو لما جهل. قال أبو الفتح البُستي :

ذو العقل لا يسلم من جاهل   يسومه ظلما وإعناتا
فليختر السلم على حربه   وليلزم الإنصات إن صاتا

وقد قال بعض البلغاء : ما ذب عن الأعراض كالصفح والإعراض. وقال بعض الشعراء :

أحب مكارم الأخلاق جهدي   وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حلما   وشر الناس من يهوى السبابا
ومن هاب الرجال تهيبوه   ومن حقر الرجال فلن يهابا

وفي الجامع الصغير : (من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ومن حفظ لسانه ستر الله عورته)[92]. قال المناوي : أي عن الوقيعة في أعراض المسلمين أو عن

---

(92) الترغيب والترهيب للمنذري.

فصل في الاستفادة

وَاصْحَبْ دَوَاماً دِفْتَراً مُطَالِعَهْ فَمَا ثَبَاتُ حِكْمَةٍ إِلاَّ مَعَهْ
فِيهِ بَيَاضٌ وَلَدَيْكَ مَحْبَرَهْ لِكَتْبِ مَا تُمْلِي عَلَيْكَ الْمَهَرَهْ
فَالْعِلْمُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا رُسِمْ قَرَّ وَقَرَّ مَا بِحِفْظٍ يَتَّسِمْ

النطق بما يحرم. وفي الجامع أيضا (لو كان المؤمن على قصبة في البحر لقيض الله له من يؤذيه)[93] قال المناوي : ليضاعف له الأجور ويرفع له الدرجات، فينبغي أن يقابل ذلك بالرضى والتسليم ويعلم أنه إنما سلط ذلك عليه لخير له. إما بذنوب اقترفها أو لزيادة رفعة في الآخرة.

«**فصل في الاستفادة، واصحب دواما دفترا**» كجعفر ودرهم جماعة الصحف المضمومة «**مطالعه فما ثبات حكمة إلا معه**» وقد قيل في هذا المعنى :

من لم يك الدفتر في كمه لم تثبت الحكمة في قلبه

وينبغي أن يكون «**فيه بياض ولديك محبره**» : وعاء المداد «**لكتب ما تملي عليك المهره**» من الفوائد العلمية. «**فالعلم**» الكامل الحسن ما يؤخذ «**من أفواههم**» قال اليوسي : في آداب المتعلم مع الشيخ : وليأخذ عمن أخذ العلم عن أهله وتأدب بالمتأدبين، ولا يأخذ عن صحفي، وهو من أخذ العلم من بطون الأوراق فقط. ويروى عن الإمام الشافعي : من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام.

ومما قيل في تلقين الشيخ قول أبي حيان :

أمدعيا علما ولست بقارىء كتابا على شيخ به يسهل الحزن ؟
أتزعم أن الذهن يوضح مشكلا بلا موضح ؟ كلا.. لقد كذب الذهن
وإن الذي تبغيه دون معلم كموقد مصباح وليس له دهن

وقوله أيضا :

يظن الغمر أن الكتب تهدي أخا فهم لإدراك العلوم

---

(93) كنز العمال.

وَذَاكَ جَرّا حِفْظِهِمْ لِلأَحْسَنِ وَقَوْلِهِمْ لأَحْسَنِ الْحِفْظِ السَّنِي
أَوْصَى ٱبْنَهُ بَعْضٌ بِحِفْظِهِ يَسِيرْ فِي كُلِّ يَوْمٍ فَهْوَ عَنْ قُرْبٍ كَثِيرْ
فَلاَ تُضَيِّعْ سَاعَةً فَالْعُمْـــرُ ذُو قِصَرٍ وَالْعِلْمُ بَحْرٌ غَمْرُ

وما يدري الجهول بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى تكون أضل من توما الحكيم

وتوما بضم المثناة الفوقية، وذلك أنه رأى في كتاب: الحبة السوداء شفاء من كل داء. فقرأها الحية السوداء بالمثناة التحتية، فأخذ حية سوداء فأكلها فقتلته أو أعمته كما في هدى الأبرار. **«وما رسم»** أي كتب من العلم **«قر»** أي استقر **«وفر»** من حافظه **«ما يحفظ يتسم وذاك جرا»** أي وإنما كان العلم من أفواههم لأجل **«حفظهم للأحسن»** أي أحسن ما يسمعون **«و»** جرا **«قولهم لأحسن الحفظ السني»** أي لأحسن ما يحفظون. ويقال: أنبل العلماء من يكتب أحسن ما يسمع ويحفظ أحسن ما يكتب ويحدث بأحسن ما يحفظ. **«أوصى ابنه بعض بحفظه يسير»** من العلم والحكمة **«في كل يوم فهو»** أي ما حفظه كل يوم **«عن قرب»** يكون **«كثير»** بكثرة مرور الأيام.

«فلا تضيع ساعة» بتعطيلها وصرفها إلى ما لا ينبغي **«فالعمر ذو قصر والعلم بحر غمر»** كثير الماء. اليوسي: وليعلم أن العلم بحر لا يدرك له غور، ولا يستطاع نيله بعمر، فليأخذ الأهم فالأهم.. إلى أن قال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما: العلم أكثر من أن يحصى فخذ من كل شيء أحسنه، وأنشدوا:

ما أكثر العلم وما أوسعه! من ذا الذي يقدر أن يجمعه؟
إن كنت لابد له طالبا محاولا فالتمس أنفعه

وقال الآخر:

قالوا: خذ العين من كل فقلت لهم في العين فضل ولكن ناظر العين
حرفان في ألف طومار مسودة وربما لم تجد في الألف حرفين

وَٱغْتَنِمِ ٱلْخُلْوَةَ وَاللَّيَالِـي وَكَتْبَ مَا سَمِعْتَهُ فِي ٱلْحَالِ
وَطُولَ لَيْلٍ لاَ تُقَصِّرْ بِٱلْمَنَامْ وَضَوْءَ يَوْمٍ لاَ تُكَدِّرْ بِٱلْحَرَامْ
وَلْتَغْتَنِمْ مِنَ الشُّيُوخِ ٱلْبَرَكَهْ وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَفُوتُ مُدْرِكَهْ

«واغتنم الخلوة» أي الموضع الذي تخلو فيه عن الموانع والأغيار **«والليالي»** قال في النشر الطيب : مما يستعان به على التحصيل حفظ الأمهات والقواعد الكلية والمسائل المنظومة؛ لأنه سبب للاستحضار، وأجود أوقات الحفظ الأسحار ثم نصف الليل ثم الغداة، وحفظ اليل أجود وأنفع ووقت خلو المعدة عن الطعام، وأجود أماكنه الغرف وكل موضع بعيد عما يشغل القلب، والمقصود من الحفظ الفهم، وفوقه المذاكرة مع من ينصف؛ لأنها تفيد التحقيق. **«و»** اغتنم **«كتب ما سمعته في الحال»** أي في حال سماعه. اليوسي : أوصى مالك بعض أصحابه عندما ودعه فقال : أوصيك بتقوى الله في السر والعلانية والنصح لكل مسلم وكتابة العلم من عند أهله. وعن الخليل بن أحمد : اجعل ما تكتب بيت مال وما في صدرك للنفقة. **«وطول ليل لا تقصر بالمنام وضوء يوم لا تكدر بالحرام»** أي لا تجعله ذا كدورة وظلمة بتلوثه به. **«ولتغتنم من الشيوخ البركه»** والاستفادة قولا وفعلا ؛ لقوله عليه السلام : (البركة مع أكابركم)[94] أي البركة مع صحبة أكابركم وأقدمكم زمانا؛ لأنهم جربوا الأشياء كثيرا فعلموا الفائدة في أي فعل وفي أي قول. ومن العتبية : قال مالك : كان لقمان الحكيم يقول لابنه : يابني لا تجالس الفجار ولا تماشهم.. اتق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم، يابني جالس الفقهاء وماشهم.. عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

وعن سفيان بن عيينة : قال عيسى بن مريم : جالسوا من يذكركم بالله رؤيته، ومن يزيد في علمكم منطقه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله. وعن أبي حنيفة أنه قال : الحكايات عن العلماء ومجالستهم أحب إلي من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم وأخلاقهم. **«وليس كل ما يفوت»** من العلوم ومن التلاقي مع أكابر العلماء والفضلاء **«مدركه»** أي واجده بعد. ولبعضهم في المعنى :

(94) الترغيب والترهيب.

وَلْتَسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنْ إِعْـرَاضِ عَنْ عِلْمِهِ بِٱلْخِزْيِ غَيْرَ رَاضِ
فَالْعِلْـمُ عِـزٌّ مَـا بِـهِ إِذْلاَلُ بِالـذُّلِّ لاَ عِـزٌّ بِـهِ يُنَـالُ

فصل في الورع في حال التعلم

وَفِي التَّعَلُّمِ عَلَيْكَ بِالْـوَرَعْ فَاقِدُهُ فِيهِ يَقُولُ مَـنْ شَرَعْ
أَنْ فِي الرَّسَاتِيقِ ثَوَى أَوْ حَانَا شَبَابَـهُ أَوْ خَـدَمَ السُّلْطَانَـا

لهفي على فـوت التـلاقي لهفـا ما كل ما فات ويفنى يلفـى

«ولتستعذ بالله» دائما «من إعراض عن علمه» تعالى وفواته حال كونك «بالخزي» والخسارة دنيا وآخرة «غير راض فالعلم عز» أبدي «ما به إذلال» فلا ذل ولا حقارة فيه «بالذل لا عز به ينال» ويتوصل إليه. والمراد بهذا الذلّ التملّق للأستاذ والشركاء وغيرهم للاستفادة منهم وعرض الاحتياج إليهم في التعلم.

ولبعضهم :

أرى لك نفسا تشتهي أن تعزها فلست تنال العز حتى تـذلها

ولابن هشام الأنصاري :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيلـه ومن يخطب الحسنا يصابر على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العلى يسيرا يعش دهرا طويلا أخا ذل

ولأبي عثمان التجيبي :

الـذل في طـلب الإفـادة عـزة فاحرص على نيل الإفادة ترشد
إن التعـزز في الـذي تحتاجـه كبر وكبر المرء أقبح مـقصد

«فصل في الورع في حال التعلم» أي التحرز عن الحرام **«وفي التعلم عليك بالورع فاقده»** أي الورع في حال التعلم **«فيه يقول من شرع»** الأحكام مجازا وهو النبي عليه السلام فالشارع حقيقة هو الله تعالى **«أن في الرساتيق»** جمع رستاق للقرية **«ثوى»** أي أقام بين قوم جاهلين، وقد أوصى مالك الشافعي رضي الله عنهما عند مفارقته فقال له : لا تسكن الريف، أي أطراف البلاد التي لا تخالط علما فيضيع علمك، واكتسب الدراهم ولا تكن عولة على الناس، واتخذ ذا جاه

مَنْ كَانَ فِي تَعَلُّمٍ تَوَرُّعَا يَكُونُ أَيْسَرَ وَعِلْماً أَنْفَعَا
وَمِنْهُ الاِحْتِرَازُ عَنْ جَمِّ الْكَلاَمْ فِي غَيْرِ نَافِعٍ وَكَثْرَةِ الْمَنَامْ
وَشِبَعٍ وَعَنْ طَعَامِ السُّوقِ فَلْتَحْتَرِزْ مُشَمِّراً عَنْ سُوقِ

ظهرا؛ لئلا تستخف بك العامة، ولا تدخل على ذي سلطان إلا وعنده من يعرفك، وإذا جلست عند كبير فليكن بينك وبينه فسحة؛ لئلا يأتي من هو أقرب منك فيدنيه ويبعدك فيحصل في نفسك شيء. «أو حانا» أي مات «شبابه» أي في زمانه «أو خدم السلطانا» أي ابتلي بخدمته فيضيع ما حصل من العلوم. ولفظ الحديث: (من لم يتورع في تعلمه ابتلاه الله تعالى بأحد ثلاثة أشياء: إما أن يميته في شبابه، أو يوقعه في الرساتيق، أو يبتليه بخدمة السلطان» اليوسي: ولا يذهل عن الباعث له على الاشتغال بالعلم، فإن كان هو طلب ما أعد من الثواب فهو حسن، وأحسن منه أن يكون طلب التقرب إلى الله تعالى، وأحسن منه أن يكون امتثالا لأمر المولى سبحٰنه وطاعة له أو سعيا في تصحيح طاعته، والنفس نزوع إلى الحظوظ العاجلة من مال وعز وجاه ونحو ذلك وعندها تشتغل قريحتها ولا خير في ذلك.

أبو عمر: كان يزيد العقيلي يقول: من أراد بعلمه وجه الله تعالى أقبل الله عليه بوجهه وأقبل بقلوب العباد عليه، ومن عمل لغير الله صرف الله وجهه وصرف قلوب العباد عنه.

«من كان في تعلم تورعا يكون» التعلم «أيسر» له. ابن رشد: من أنفع ما يستعان به على طلب العلم تقوى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (95) «و» يكون «علما أنفعا» وأكثر فوائد ببركة الورع. «ومنه» أي الورع «الاحتراز عن جم الكلام» أي عن كثيره بالبحث «في غير نافع» من العلوم؛ لأنه لغو محض وتضييع عمر «و» الاحتراز عن «كثرة المنام و» عن «شبع وعن طعام السوق فلتحترز» إن أمكنك، حال كونك «مشمرا عن سوق» جمع ساق.

---

(95) البقرة 281.

دَعْ غِيبَةً وَمُكْثِرَ الْكَلاَمِ فَإِنَّهُ مُضَيِّعُ الأَيَّامِ
وَدَعْ مُجَاوَرَةَ ذِي الْبَطَالَهْ فَهْيَ تُؤَثِّرُ وَلاَ مَحَالَهْ
وَلْتَجْلِسَنْ مُسْتَقْبِلاً مُسْتَنَّا بِمَا لَهُ نَبِيُّنَا قَدْ سَنَّا
وَانْظُرْ حِكَايَةَ فَقِيهٍ نَالاَ الْفِقْهَ مِنْ جُلُوسِهِ اسْتِقْبَالاَ

وذلك لأنه أقرب إلى النجاسة والخباثة، وأبعد عن ذكر الله تعالى وأقرب إلى الغفلة، ولأن أبصار الفقراء تقع عليه ولا يقدرون على الشراء منه فيتأذون بذلك. **«دع غيبة»** قال في المدخل: من آكد الأمور على المتعلم تخليص ذمته من إخوانه وجلسائه ومعارفه وغيرهم؛ إذ تخليص الذمة هو المطلوب والمقصود الأعظم، فليحذر من هذين الأمرين الخطرين اللذين عمت بهما البلوى؛ لكثرة وقوعهما على الألسن وهما الغيبة والنميمة.. فالنميمة أن تنقل حديث قوم إلى آخرين، والغيبة أن تقول في غَيْبة الشخص ما يكرهه ـــ وإن كان حقا ـــ، وأما إن كان ذلك القول باطلا فهو البهتان بعينه. **«و»** دع **«مكثر الكلام»** فلا تجالسه **«فإنه مضيع الأيام»** عليك بالاستماع له. **«ودع مجاورة ذي البطاله»** المضيع عمره فيما لا يهم **«فهي»** أي المجاورة **«تؤثر ولا محاله»** فلابد من التحرز عن مثله تحرزا عن التخلق بأخلاقه.

«ولتجلسن مستقبلا» للقبلة **«مستنا»** أي آخذا وعاملا **«بما له نبينا»** عليه السلام **«قد سنا وانظر»** بعين الفكر **«حكاية فقيه نالا الفقه من جلوسه استقبالا»** مفعول مطلق أو حال أي مستقبلا، فقد حكي أن رجلين خرجا في طلب العلم لديار الغربة ـــ وكانا شريكين في العلم ـــ فرجعا بعد سنين إلى بلدهما وقد فقه أحدهما ولم يفقه الآخر، فتأمل فقهاء البلدة وسألوا عن حالهما وتكرارهما وجلوسهما فأخبروا أن جلوس الذي تفقه في حال التكرار كان مستقبل القبلة والمصر الذي حصل العلم فيه، والآخر كان مستدبر القبلة ووجهه إلى غير المصر، فاتفق العلماء والفقهاء أن الفقيه فقه ببركة استقبال القبلة؛ إذ هو السنة في الجلوس إلا عند الضرورة، وببركة دعاء المسلمين فإن المصر لا يخلو عن العباد وأهل الخير !!.

دَعْوَةَ أَهْلِ الْخَيْرِ كُنْ مُغْتَنِمَا وَلْتَحْتَرِزْ مِنْ دَعْوَةِ الَّذْ ظَلِمَا
وَآعْتَنِ بِالآدَابِ وَالسُّنَنِ مَنْ لَمْ يُعْنَ بِالآدَابِ يُحْرَمِ السُّنَنْ
وَمَنْ بِذِي تَهَاوَنَ الْفَرْضَ فَقَدْ وَآلْمُتَهَاوِنُ بِفَرْضٍ أَجْرَ غَدْ
وَصَلِّ بِالْخُشُوعِ لِلْجَلِيلِ فَإِنَّهُ عَوْنٌ عَلَى آلتَّحْصِيلِ

«دعوة أهل الخير» من العلماء والصالحين **«كن مغتنما»** اليوسي : مما يعين بإذن الله على الحفظ والفهم وكل فلاح زيارة الصالحين كما قيل :

زيارة أرباب التقى مرهم يبري ومفتاح أبواب الهداية والخير

ولله در القائل :

اسرد حديث الصالحين وسمهم فبذكرهم تتنزل الرحمات
واحضر مجالسهم تنل بركاتهم وقبورهم زرها إذا ما ماتوا

«ولتحترز عن دعوة الذ ظلما» إذ دعوته مستجابة بالحديث الصحيح. **«واعتن»** يا طالب العلم **«بالآداب والسنن»** فإن **«من لم يعن»** أي لم يهتم **«بالآداب يحرم السنن ومن بذي»** السنن **«تهاون الفرض»** مفعول **«فقد»** أي حرم أداءه **«والمتهاون بفرض»** فقد **«أجر غد»** فيحرم من ثواب الآخرة الموعود لأهل الفرائض.

وفي العوارف : قال عبد الله بن المبارك : من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة. وفيه أيضا : قال يوسف بن الحسين : بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة يقام الزهد، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا يرغب في الآخرة، وبالرغبة في الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى. وفيه أيضا : قال أبو الحسين النوري : ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة، وآداب الشريعة حلية الظاهر، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلي بمحاسن الآداب. **«وصل بالخشوع للجليل»** مكثرا من النوافل والتطوعات **«فإنه»** أي أداء الصلاة على وجه الخشوع **«عون»** للطالب **«على التحصيل»** للعلم. قال في المدخل : وينبغي لطالب العلم أن لا يخلي نفسه من

وَنِعْمَ قَوْلُ النَّسَفِيِّ الشَّاعِـرِ كُنْ حَافِظاً لِلنَّهْيِ والأَوَامِـرِ

العبادات، وأن يكون له ورد من كل شيء؛ إذ أنها سبب الإعانة على ما أخذ سبيله، ثم قال : وليحذر أن يتكلف من العمل ما عليه فيه مشقة أو يخل باشتغاله بالعلم؛ إذ أن اشتغاله بالعلم أفضل كما تقدم، وهذا كثيرا ما يدخل منه الشيطان على المشتغلين بالعلم إذا عجز عن تركهم له فيأمرهم بكثرة الأوراد حتى ينقص اشتغالهم؛ لأن العلم هو العدة التي يتلقى بها ويحذر منه بها، فإذا عجز عن الترك رجع إلى باب النقص وهو باب قد يغمض على كثير من طلبة العلم؛ لأنه باب خير وعادة الشيطان أن لا يأمر بخير، فيلتبس الأمر على الطالب فيخل بحاله. وكان سيدي أبو محمد رحمه الله تعالى يقول : ينبغي لطالب العلم أن يكون عمله في علمه مثل الملح في العجين : إن عدم منه لم ينتفع به والقليل منه يصلحه، وإذا كان ذلك كذلك فينبغي له أن يشد يده على مداومته على فعل السنن والرواتب، وما كان منها تبعا للفرض قبله أو بعده فإظهارها في المسجد أفضل من فعلها في بيته كما كان عليه الصلاة والسلام يفعل ماعدا موضعين فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يفعلهما إلا في بيته، وهما : الركوع بعد صلاة الجمعة والركوع بعد صلاة المغرب.

«ونعم قول» نجم الدين عمر بن محمد **«النسفي الشاعر كن حافظا للنهي»** باجتناب المنهيات **«والأوامر»** بامتثال المأمورات، قال رحمه الله تعالى :

كن للأوامر والنواهي حافظـا وعلى الصلاة مواظبـا ومحافظـا
واطلب علوم الشرع واجهد واستعن بالطيبـات تصر فـقيها حافظـا
واسأل إلهك حفظ حفظك راغبا في فضلـه فـالله خير حافظـا

فبالعمل يصلح للعالم شرف الدنيا والآخرة، ويرسخ علمه ويدوم، وقيل العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل. ولمحمود بن الحسن الوراق :

إذا أنت لم ينفعك علمك لم تجد لعلمك مخلوقا من الناس يقبله
وإن زانك العلم الذي قد حملته وجدت له من يجتنيه ويحمله

فصل فيما يورث الحفظ
وفيما يورث النسيان

أَلْجِدُّ وَالدَّوَامُ تَقْلِيلُ الْغِـذَى ... لِلْحِفْظِ أَقْوَى سَبَبٍ وَهَكَـذَا
صَلاَةُ لَيْلٍ وَالْقِـرَاءَةُ نَظَـرْ ... لِمُصْحَفٍ تَفُوقُ عَنْ أُولِي النَّظَرْ
بَسْمِلْ لَدَى رَفْعِ الْكِتَابِ وَابْتَدِ ... بَالْبَاقِيَـاتِ الصَّالِحَـاتِ وَزِدِ

«فصل فيما يورث الحفظ وفيما يورث النسيان الجد» أي الاجتهاد «والدوام» أي المواظبة، و«تقليل الغذى» ما يتغذى به «للحفظ أقوى سبب» قال ابن القيم: أربعة تزيد في الفهم: فراغ القلب، وقلة التملي من الطعام والشراب، وحسن تدبير الغذاء بالأشياء الحلوة والدسمة، وإخراج الفضلات المثقلة للبدن، ومما يضر بالعقل إدمان أكل البصل والباقلا والزيتون والباذنجان وكثرة الجماع والوحدة والأفكار والسكر وكثرة الضحك والغم. وفي النشر الطيب: أصل العقل موهبة من الله تعالى فضل بها الإنسان، ويتقوى بأمور، منها أكل الحلال — وهو أفضلها — وأكل لحم الضأن والأطعمة الدسمة والشيء الحلو — سيما الزبيب — ومضغ اللبان وتخفيف المعدة، وينبغي للطالب أن يجتنب الأطعمة الغليظة المؤثرة جمود القريحة ما أمكنه كالفول والبصل والزيتون والباذنجان والسمك وأكل الحوامض واللبن المخيض ونحو ذلك. «وهكذا» من أقوى سببه «صلاة ليل» تطوعا كالتهجد «والقراءة» للقرآن «نظر» بوقف ربيعة «لمصحف» أي بالنظر إلى وجهه فإنها «تفوق» سائر الأعمال كما روي «عن أولي النظر» وقد قلت:

قِـرَاءَةٌ بِمُصْحَـفٍ أَفْضَلُ مِـنْ ... قِرَاءَةٍ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ إِذْ قَمِنْ
بِأَنَّـهُ نَظَـرُهُ عِبَـادَهْ ... مَـعَ الْقِـرَاءَةِ هُنَـا مُـزَادَهْ
وَالنَّـوَوِي لَدَيْـهِ ذَاكَ يَظْهَـرُ ... حَيْثُ اسْتَوَى الْخُشُوعُ وَٱلتَّدَبُّرُ
فِي ٱلْحَالَتَيْـنِ وَإِذَا عَـنْ ظَهْـرِ ... قَلْبٍ قَدِ ٱزْدَادَا فَعَكْسٌ يَجْرِي

«بسمل لدى رفع الكتاب» الذي تقرؤه وتطالعه «وابتد» بعد ذلك «بالباقيات الصالحات وزد» «ما قد رووه بعدها» أي الباقيات فتقول: بسم الله سبحان

مَا قَدْ رَوَوْهُ بَعْدَهَا وَبَعْدَ كُلْ   مَكْتُوبَةٍ ءَامَنْتُ بِٱللَّهِ فَقُلْ
وَصَلِّيَنْ عَلَى رَسُولِ ٱلأُمَّهْ   بِكَثْرَةٍ مُسْتَمْطِراً لِلرَّحْمَهْ
وَحِدْ عَنِ ٱلآثَامِ وَٱلْمَعَاصِي   فَٱلْعِلْمُ نُورٌ لَمْ يَجِدْهُ عَاصِ

الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز الحليم عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الآبدين ودهر الداهرين. **«وبعد كل مكتوبة»** أي صلاة مفروضة **«آمنت بالله»** الواحد الأحد الحق وحده لا شريك له وكفرت بما سواه **«فقل وصلين على رسول الأمه»** عليه الصلاة والسلام **«بكثرة مستمطرا للرحمه»** فببركة الصلاة عليه يرجى نزول الرحمة وشدة الحفظ وزوال النسيان. ويطلب التعوذ في ابتداء قراءة العلم؛ لأنه إذا طلب في القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فالعلم أحرى كما في نور البصر. **«وحد عن الآثام والمعاصي فالعلم نور لم يجده عاص»** قال الشافعي :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي   فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور   ونور الله لا يؤتاه عاص

اليوسي : من أقوى الأسباب ـــ يعني للفهم والحفظ ـــ التقوى وتجنب المعاصي قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[96] و﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[97] ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[98] والرزق عام، وقال ﷺ : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم)[99].

وعن أبي سليمان الداراني رضي الله عنه : إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائِفِ الحكمة من غير أن يؤدي إليها

---

(96) البقرة 281.
(97) الأنفال 29.
(98) الطلاق 02.
(99) إتحاف.

مَا قَلَّلَ البَلْغَمَ وَالرُّطُوبَهْ زِيَادَةُ الْحِفْظِ بِهِ مَجْلُوبَهْ
فَالسَّوْكُ وَالعَسَلُ مِمَّا يُحْظِي مُسْتَعْمِلاً لَهُ مَزِيدَ الْحِفْظِ
وَمُوجِبُ البَلْغَمِ ذُو انْتِقَاصِ لِلْحِفْظِ مِثْلَ كَثْرَةِ الْمَعَاصِي

عالم علما. قال في النشر الطيب : قال سفيان الثوري : إنما يتعلم العلم ليتقى الله به، وبذلك فضل على غيره.

وقال الغزالي في المنهاج : العلم بمنزلة الشجرة والعمل بمنزلة الثمرة، فالشرف للشجرة إذ هي الأصل والانتفاع إنما هو بثمرتها، ولذا قال الحسن : اطلبوا العلم طلبا لا يضر بالعبادة واطلبوا العبادة طلبا لا يضر بالعلم. **«ما قلل البلغم والرطوبه»** كالأشياء اليابسة المجففة **«زيادة الحفظ به مجلوبه فالسوك»** أي استعمال السواك **«والعسل»** شربه **«مما يحظي»** يعني يفيد **«مستعملا له مزيد الحفظ»** وكذا أكل الكندر مع السكر، وأكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء كل يوم على الريق. **«وموجب البلغم»** كالأشياء الرطبة **«ذو انتقاص للحفظ»** فيورث النسيان **«مثل كثرة»** الذنوب و**«المعاصي»** وقد قلت :

رُوحُ الْبَيَانِ قَالَ فِي الْعِصْيَانِ هُوَ مِنَ أَقْوَى سَبَبِ النِّسْيَانِ

فمن ابتلي بالمعاصي كالفواحش وشرب الخمر ــ عياذا بالله تعالى ــ فقد تعذر عليه طلب العلم مادام كذلك، وذلك من جهات منها الحرمان الإلهي، وفي الحديث : (لا يزني الزاني... إلخ)[100] فكيف يطمع بالفتح من لا يعد مؤمنا ؟، ومنها أن همته تغيب في تلك اللذات فتذهب معها فكرته وتأمله، ومنها أن شأنه أن لا يقر قراره؛ لانزعاج باطنه بنيران الشهوات فلايزال جوالا مترصدا مترددا في ميدان ما تولع به فمن أين له اللبث في مجالس العلم بقلب حاضر وسمع شهيد ؟، ومنها أن ذلك البلاء يحوجه إلى المال والاشتغال به وفي ذلك تلفه، وإلى معاشرة الأضداد وكل من لا خلاق له وفي ذلك جَفاؤه وانقطاعه، ومنها أن تلك الشهوات غالبة على النفس إذا تمكنت منها إلا من وقاه الله تعالى فلا تسلمها لشيء فقد قطعت الناس عن الملك الذي هو مجمع لذات النفس النفسانية والروحانية. انتهى

---

(100) متف عليه.

وَكَثْرَةُ الْهُمُـومِ وَالأَحْـزَانِ   وَشُغُلٍ مِنْ مُوجِبِ النِّسْيَـانِ
وَظُلْمَةُ الْقَلْبِ هُمُومُ الْعَاجِلَهْ   تُوجِبُهَا عَكْسَ هُمُومِ الآجِلَهْ
وَكُلُّ ذَا يَظْهَرُ فِي ٱلصَّلَاةِ   فَهَمُّ الأُولَى مَانِعُ الْخَيْـرَاتِ

من القانون باختصار. «وكثرة الهموم والأحزان» في أمور الدنيا «و» كثرة العلائق و«شغل من موجب النسيان».

ابن القيم : أربعة تضر بالفهم والذهن : إدمان أكل الحوامض والفواكه، والنوم على القفا، والهم، والغم. اليوسي : أضر شيء بالعقل الاشتغال بما لا يعني والبطالة. وقال في زهر الأفنان : والسر في أن ما يلقى إلى الصبيان من مسائل العلم يكون أرسخ وأثبت مما يلقى إلى الكبار؛ لأن قلب الصبي فارغ وقلب الكبير مشحون بهموم الدنيا وأغراضها، وإن كان فهم الكبير أسرع من فهم الصغير؛ لكمال عقل الكبير ونقصان عقل الصغير، فالكبير سريع الفهم كثير النسيان والصغير بالعكس، وقد عرفت السر في ذلك. ولأجل فراغ قلوب السلف الصالح رضي الله عنهم من أشغال الدنيا وهم الرزق وخوف الخلق وجمع همهم على الآخرة.. لم يحتاجوا إلى تدوين العلم اتكالا على حفظهم؛ لرسوخ ما يلقى إليهم في قلوبهم. وقد قال الشافعي رضي الله عنه : لو كلفت شراء بصلة ما حفظت حديثا واحدا !. «وظلمة القلب هموم العاجله توجبها عكس هموم الآجله» أي الآخرة فلا تخلو عن النور في القلب «وكل ذا يظهر في الصلاة فهم الاولى» لكونه لا يخلو عن ظلمة في القلب «مانع الخيرات» لأن سبب الظلمة وسبب النور لا يجتمعان لتنافيهما، وهم الآخرة يحمل على الخير ويحرض عليه؛ لأنهما متناسبان. كنون : قال بعض العارفين : قيل في قوله تعالى : ﴿لاَ تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾(101) أي من حب الدنيا؛ لأن محبها لا تستقيم له صلاة ولا وضوء، فإذا قام إلى الوضوء مثلا احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب نقطة العسل، فإذا كبر اطلع الملك في قلبه فإذا كان في قلبه أكبر من الله عنده فيقول الملك : كذبت.. ليس الله عز وجل في قلبك كما قلت، فيثور من قلبه دخان يلحق بعنان

---

(101) النساء 43.

وَالشُّغْلُ بِالعِلْمِ وَبِآلصَّلاَةِ مَعْ خُشُوعِ الْهَمِّ وَحُزْناً قَدْ دَفَعْ
وَالنَّسَفِيُّ قُدْوَةٌ فِي آلصَّرْفِ لِلنَّفْسِ عَمَّنْ تَيَّمَتْ بِآلظَّرْفِ
وَيُورِثُ النِّسْيَانَ أَكْلُ الْكُزْبَرَهْ وَحَامِضِ التُّفَّاحِ عِنْدَ الْمَهَرَهْ
قِرَاءَةُ الْخَطِّ بِأَحْجَارِ الْقُبُورْ وَهَكَذَا بَيْنَ قِطَارِ الْمُـرُورْ
وَنَظَرُ الْمَصْلُوبِ غَيْرِ الْمَرْضِي إِلْقَاءُ قَمْلٍ حَيَّةٍ بِـالْأَرْضِ

السماء فيكون حجابا لقلبه عن الملكوت، ويلقم الشياطين قلبه فلا يزالون ينفخون فيه وينفثون ويوسوسون ويزينون له حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيها. وفي الحديث : (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها)[102] وورد : (إن العبد ليقرء إياك نعبد وإياك نستعين فيقول الله عز وجل : كذبت لو كنت إياي تعبد لم تخف ولم ترج سواي ولو كنت بي تستعين لم تسكن إلى مالك وأهلك) **«والشغل بالعلم»** أي بتحصيله **«وبالصلاة مع خشوع الهم وحزنا قد دفع»** فالعلم لكمال لذته ينفي سائر الخواطر ويجعل صاحبه مشغولا به فقط **«والنسفي قدوة»** يقتدى به **«في الصرف للنفس عمّن تيّمت»** أي عبدت وذللت **«بالظرف»** أي بالظرافة واللطافة.. فقد قال في وصف جارية مستولدة له :

سلام على من تيمتني بظرفهـــا ولمعـــة خـــديها ولمحة طرفهـــا
سبتنـي وأصبتنـي فتـــاة مليحـــة تحيرت الأوهام في كنه وصفها
فقلت ذريني واعذريني فإننـــي شغفت بتحصيل العلوم وكشفها
ولي في طلاب العلم والفضل والتقى غنى عن غناء الغانيات وعرفها

«ويورث النسيان» بإذن الله تعالى بالخاصية **«أكل الكزبره»** الرطبة بضم الكاف والباء وقد تفتح الباء **«وحامض التفاح عند المهره قراءة الخط»** المكتوب **«بأحجار القبور وهكذا بين قطار المرور»** بأن يمر بين جملين مقطورين.. قطر الإبل وأقطرها : قرن بعضها إلى بعض على نسق. **«و»** هكذا **«نظر المصلوب»** أي النظر إليه **«غير المرضي»** عندهم؛ لما يؤدي من النسيان، وكذا **«إلقاء قمل حية بالأرض»**

---

(102) إتحاف.

حِجَامَةٌ بِنُقْرَةِ الْقَفَا تُعَدْ مِنْ مُوجِبِ النِّسْيَانِ عَنْ خَيْرِ مَعَدْ

فصل فيما يجلب الرزق وما يمنعه وما يزيد في العمر وما ينقص

كَيْ تَتَفَرَّغَ لِعِلْمٍ فَادْرِ زَائِدَ رِزْقٍ صِحَّةٍ وَعُمْرِ
وَيَحْرِمُ الرِّزْقَ ارْتِكَابُ الْوِزْرِ خُصُوصاً الْكَذِبُ مُفْضِي الْفَقْرِ

وهو منهي شرعا؛ لأنه من تعذيب الحيوان، وقال الشيخ أبو الحسن إنه حرام؛ لأنها تصير عقربا وقل من لدغته إلا ومات. «**حجامة بنقرة القفا**» بالضم أي حفرته «**تعد من موجب النسيان**» كما روي «**عن خير معد**» عليه السلام.. ففي ابن زكري عن التفجروتي : جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (خمس يزدن في النسيان : الحجامة في النقرة، وإلقاء القمل حية، والبول في الماء الدائم، وأكل التفاح الحامض، وسؤر الفار).

ومن ذلك أيضا ــ كما في القانون ــ كثرة الهم والنظر في الماء الدائم.

«**فصل فيما يجلب الرزق وما يمنعه وما يزيد في العمر وما ينقص**» فلابأس أن يراعي الطالب في تصرفاته ما يعد مجلبة للغنى بإذن الله فيأتيه وما يكون مجلبة للفقر فيحذر منه.. مما لا يعوقه عن شغله، وكذا إن ظفر بشيء من أسباب البركة من أسمائه تعالى أو نحوها من غير أن يعطل في ذلك وقته ولا أن يشغل فكره، وأما الخروج إلى استجلاب المال بالتشاغل بأسبابه العادية كالتجارة والحرث والتعليم فشاغل له عما هو بصدده. قاله اليوسي.

«**كي تتفرغ لعلم**» أي لطلبه «**فادر**» أي فاعرف أيها الطالب «**زائد رزق صحة وعمر ويحرم**» المرء «**الرزق ارتكاب الوزر**» أي الإثم ففي الخبر : (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)[103] قال في شرح الخاتمة : قيل معناه : يحرم رزق

---

(103) أحمد في مسنده.

وَنَوْمُ صُبْحَةٍ كَذَا النَّوْمُ الْمُطَالْ لِفَقْرِ عِلْمٍ جَالِبٌ وَفَقْرِ مَالْ
وَالنَّوْمَ عُرْياً فَٱلْزَمِ ٱجْتِنَابَـهْ كَالأُكْلِ بِٱلْجَنْبِ وَبِٱلْجَنَابَـهْ

الآخرة من قلة التوفيق للأعمال الصالحة، وقيل معناه يحرم الحلال ولا يوفق له؛ لوقوعه في المعصية، وقيل يحرم مجالسة العلماء ومعرفة الصالحين، وقيل يحرم العلم وهو الرزق الذي لا يصلح عمل إلا به لأجل إقامته على الجهل.

ولبعضهم :

إذا شئت أن تلقى من الله نعمة عليك فسارع في حوائج خلقه
ولا تعصين الله ما رمت ثروة فيحظر عنك الله واسع رزقـه

«خصوصا الكذب مفضي الفقر ونوم صبحة» بالضم والفتح أي النوم وقت الصبح، ففي الجامع الصغير : (الصبحة تمنع الرزق)[104] قال عبد الباقي : قيل الفضل وقيل اكتسابه. العدوي : قال ابن عمر : ويكره النوم في هذا الوقت، والكلام أحرى، وعلة ذلك الشرف، وهذا لمن لم يقم اليل، وأما من سهر فلا يكره له ذلك. **«كذا النوم المطال»** يعني الكثير **«لفقر علم»** أي الجهل **«جالب وفقر مال والنوم عريا»** وكذا البول **«فالزم اجتنابه»** فهو مجلبة للفقر **«كالأكل بالجنب»** أي الاتكاء عليه **«وبالجنابه»** أي الأكل عليها، وكالأكل الشرب والنوم كما في ابن زكري، وفيه أيضا ما نصه : وفي العهود المحمدية : وقع لي أن نمت مرة على جنابة فسمعت قائلا يقول لي : من نام على جنابة تعسرت عليه أسباب رزقه فلا يحصل له رغيف حتى تكاد روحه تزهق فمن ذلك اليوم وأنا خائف من النوم على جنابة.

ويحمل قوله من نام إلخ على من داوم على ذلك وقيل له ذلك لئلا يداوم أو ذلك في حق الخاصة، وأما فعله ﷺ فتشريع كما سبق. انتهى منه.

---

(104) أحمد في مسنده.

تَهَاوُنٌ بِسَاقِطٍ مِنْ نَحْوِ خُبْزٍ يَسِيرٌ نَحْوَ ذَاكَ النَّحْوِ
تَرْكُ الْكُنَاسَةِ بِلاَ تَحْوِيلِ وَالْكَنْسُ فِي اللَّيْلِ وَبِالْمِنْدِيلِ
وَحَرْقُ قِشْرِ الثُّومِ أَوْ قِشْرِ الْبَصَلْ وَالْمَشْيُ قُدَّامَ الْمَشَائِخِ حَصَلْ
كَذَا النِّدَا بِاسْمِهِمَا لِلأَبَوَيْنْ وَالْغَسْلُ بِالتُّرَابِ وَالطِّينِ الْيَدَيْنْ

«تهاون بساقط» من المائدة **«من نحو خبز يسير نحو ذاك النحو»** الجالب للفقر ففي الخبر : (ما أهان قوم طعاما إلا ابتلاهم الله بالجوع) ورأى عليه السلام كسرة ملقاة في بيت عائشة فمشى إليها ومسحها وقال : (يا عائشة أحسني جوار نعم الله فإنها قلما نفرت من أهل بيت فكادت ترجع إليهم)[105] كما في إحكام المقال. وذكر أيضا أنه جاء في التقاط ما يقع من الطعام أنه من داوم على ذلك لم يزل في سعة من الرزق، ونحوه في كنون. وفي كنون أيضا روى أبو الشيخ : (من أكل ما يسقط من الخوان أو القصعة أمن من الفقر والبرص والجذام وصرف عن ولده الحمى) والديلمي : (من أكل ما يسقط من المائدة خرج ولده صباح الوجوه ونفي عنه الفقر) وورد أن من لعق الصحفة من الطعام وغسلها وشرب ذلك عوفي في نفسه من الجنون والجذام والبرص هو وولده. وذكر أيضا قبل هذا عن الشيخ زروق أنه يحرم احتقار الطعام وإلقاؤه في القاذورات. وعن ابن مرزوق أنه كان يقول : إذا اختلط الطعام بالتراب ونحوه بحيث لا يمكن النفع به سقطت حرمته. وعن ابن عرفة أنه يقول في الطعام المبدد في الشوارع إن قل ولم يكن في طين يلزم لقطه.

وكذا **«ترك الكناسة»** في البيت **«بلا تحويل»** لها أي بلا صرف **«والكنس»** للبيت **«في الليل و»** كنس البيت **«بالمنديل»** وعبارة اليوسي : كنس ساقط الطعام بالخرقة من منديل ونحوه. **«وحرق قشر الثوم أو قشر البصل والمشي قدام المشائخ حصل»** اليوسي : ويستثنى منه المواضع الأربعة كما مر. وقال شارح الأصل المنظوم : المشائخ جمع شيخ وهو الكبير في السن. **«كذا النداء باسمهما للأبوين»** لأن ذلك ينافي تعظيمهما **«والغسل بالتراب والطين اليدين»** مفعول قوله : الغسل.

---

(105) كنز العمال.

كَذَا عَلَى أَحَدِ شِقَّيِ الأَبوِبَهْ … أَنْ يُتَّكَا كَذَا بِكُلِّ خَشَبَهْ
تَخْلِيلُ الأَسْنَانِ وَكَالإِبَاءِ … عَنِ الدُّعَا بِالْخَيْرِ لِلآبَاءِ
كَذَا الْوُضُو فِي الْمُسْتَرَاحِ وَكَأَنْ … تَخِيطَ ثَوْبَكَ وَهُو عَلَى الْبَدَنْ
تَجْفِيفُكَ الْوَجْهَ بِثَوْبٍ وَالْحَذَرْ … فِي الْبَيْتِ بَيْتَ الْعَنْكَبُوتِ أَنْ تَذَرْ
كَذَا تَهَاوُنُكَ بِالصَّلاَةِ … إِسْرَاعُكَ الْخُرُوجَ فِي الْغَدَاةِ
مِنْ مَسْجِدٍ وَالاِبْتِكَارُ فِي الذَّهَابْ … لِلسُّوقِ وَالإِبْطَاءُ مِنْهُ فِي الإِيَابْ
شِرَاءُ خُبْزِ سَائِلٍ قَدِ افْتَقَرْ … كَذَلِكَ الدُّعَا عَلَى الْوُلْدِ بِشَرّْ
وَتَرْكُ تَخْمِيرِ الإِنَا وَالإِطْفَا … بِالنَّفَسِ السِّرَاجَ مِنْهُ يُلْفَى
كِتَابَةٌ بِقَلَمٍ لَمَّا كُسِرْ … عُقَدَ وَاسْتِعْمَالُ مُشْطٍ مُنْكَسِرْ

«كذا على أحد شقي الابوبه» جمع باب **«أن يتكا كذا بكل خشبه تخليل الاسنان»** ابن القيم : أصلح ما اتخذ السواك من خشب الأراك ونحوه، ولا ينبغي أن يؤخذ من شجرة مجهولة فربما كانت سما.

وذكر أيضا أن الخلال نافع اللثة والأسنان.. حافظ لصحتها.. نافع من تغير النكهة، وأجوده ما اتخذ من عيدان الأخلة وخشب الزيتون، والخلاف والتخلل بالقصب والآس والريحان والبادروج مضر. **«وكالإباء»** أي الامتناع **«عن الدعا بالخير للآباء كذا الوضو في المستراح وكأن تخيط ثوبك وهو على البدن تجفيفك الوجه»** أي إزالة بلله **«بثوب والحذر في البيت بيت العنكبوت»** مفعول **«أن تذر»** ففي الحديث : (طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه يورث الفقر) **«كذا تهاونك بالصلاة إسراعك الخروج في الغداة»** بعد صلاة الفجر **«من مسجد والابتكار في الذهاب للسوق والإبطاء منه في الإياب»** أي التأخر في الرجوع منه، و**«شراء خبز سائل قد افتقر كذلك الدعا على الولد بشر وترك تخمير الإنا»** أي تغطيته **«والإطفا بالنفس السراج منه يلفى كتابة بقلم لما كسر عقد»** بشيء **«واستعمال مشط»** بالضم والكسر ما يمشط به الشعر **«منكسر تسرول القائم»**

تَسَرْوُلُ الْقَائِمِ وَالتَّعَمُّمُ ... مِنْ قَاعِدٍ فِي سِلْكِ ذَاكَ يَنْظِمُ
بُخْلٌ وَتَقْتِيرٌ وَإِسْرَافٌ كَسَلْ ... وَبِتَوَانٍ وَتَهَاوُنٍ كَمَلْ
وَالرِّزْقُ يُسْتَنْزَلُ عَنْ كُلِّ ثِقَةْ ... بِحُسْنِ خَطٍّ وَبُكُورٍ صَدَقَةْ

أي لبسه السراويل **«والتعمم من قاعد»** أي لفه العمامة **«في سلك ذاك»** الجالب للفقر **«ينظم»** وينظم في سلكه أيضا **«بخل»** على الفقراء، وفي الخبر: (لا توكي فيوكي الله عليك)[106] والإيكاء شد رأس الوعاء بالوكاء وهو الرباط، والمراد عن منع الصدقة خشية الإنفاق، فإن ذلك من أعظم أسباب قطع البركة انظر كشف الحجاب. **«وتقتير»** أي إنفاق على وجه المضايقة **«وإسراف»** ضده، وفي الخبر: (من قصد في معيشته رزقه الله)[107] وفيه: (إياكم والسرف في النفقة وعليكم بالاقتصاد فما افتقر قوم اقتصدوا)[108] ويروى: (ما عال من اقتصد)[109] أي ما افتقر من أنفق على أهله وعياله من غير إسراف ولا إقتار كما في إحكام المقال. و**«كسل»** وفي الخبر: (سافروا تصحوا وتغنموا)[110] ويروى: (تصحوا وترزقوا)[111] ابن القيم: أربعة تمنع الرزق: نوم الصبحة، وقلة الصلاة، والكسل، والخيانة. **«وبتوان»** أي ضعف **«وتهاون»** في الأمور **«كمل»** الفقر أو ما يجلبه. **«والرزق يستنزل»** أي يطلب نزوله كما روي **«عن كل ثقه بحسن خط»** فقد ورد في الأثر (عليكم بحسن الخط فإنه من مفاتيح الرزق)[112] **«وبكور»** أي القيام بكرة فهو مبارك يزيد في جميع النعم خصوصا في الرزق. **«صدقه»** ففي الحديث: (استنزلوا الرزق بالصدقة)[113] وفيه (استعينوا على

---

(106) الترمذي والنسائي.
(107) الترغيب والترهيب، إتحاف.
(108) كنز العمال.
(109) أحمد في مسنده.
(110) البيهقي في السنن وأحمد في مسنده.
(111) البيهقي في السنن وأحمد في مسنده.
(112) كشف الخفا للعجلوني.
(113) إتحاف.

طِيبُ الْكَلاَمِ بَسْطُ وَجْهٍ جَلَبَهْ كَنْسُ الْفِنَا غَسْلُ الإِنَاءِ مَجْلَبَهْ
إِقَامَـــةُ الصَّلاَةِ بِالإِذْعَـــانِ فِيهَـا وَبِالتَّعْدِيـلِ لِلأَرْكَـــانِ
كَذَا الضُّحَى جَالِبَةٌ وَدَافِعَـهْ وَوَقْتَ نَوْمِ الَّيْلِ تُتْلَى الْوَاقِعَهْ

الرزق بالصدقة)[114] وفيه (الصدقة تسد سبعين بابا من الفقر)[115] ابن القيم : أربعة تجلب الرزق : قيام اليل، وكثرة الاستغفار بالأسحار، وتعاهد الصدقة، والذكر أول النهار وآخره.

«طيب الكلام بسط وجه» أي بشاشته وانبساطه **«جلبه»** أي يزيد في الرزق وكان مالك رحمه الله تعالى من أحسن الناس خلقا مع أهله وولده ويقول : في ذلك مرضاة لربك ومحبة في أهلك ومثراة في مالك ومنساة في أجلك. **«كنس الفنا»** ككتاب أي قدام الدار، و**«غسل الإناء»** الذي يستعمل للطعام ونحوه **«مجلبه»** للغنى سبب جلبه كما يروى عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : كنس الفنا وغسل الإنا مجلبة الغنى. ثم أقوى الأسباب الجالبة المحصلة للرزق هو **«إقامة الصلاة بالإذعان فيها وبالتعديل للأركان»** وسائر الواجبات والسنن والآداب قال تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ... الآية﴾[116] قال ابن عطاء الله : هذه الآية علمت أهل الفهم عن الله عز وجل كيف يطلبون رزقهم إذا توقفت عليهم أسباب المعيشة أكثروا الخدمة والموافقة وقرعوا باب الرزاق.

ابن جزي : كان بعض السلف إذا أصاب أهله خصاصة قال : قوموا فصلوا بهذا أمركم الله، ويتلو هذه الآية !!.

«كذا الضحى جالبة» للغنى وقضاء الحوائج **«ودافعه»** لما يكره، روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال : إن الله تعالى يقول : (يا ابن آدم اكفني أول النهار بأربع أكفك بهن أمر يومك)[117] يعني أقضي حوائجك وأدفع عنك

---

(114) كنز العمال.

(115) إتحاف.

(116) طه 131.

(117) أحمد وأبو يعلى.

وَسُورَةَ الْمُلْكِ مَعَ الْمُزَّمِّـلِ وَالَّيْلِ وَالشَّرْحِ اتْلُهَا تَسْتَكْمِلِ
إِدَامَةَ الطُّهْرِ حُضُورَ الْمَسْجِدِ قَبْلَ النِّدَا وَالْفَجْرَ فِي الْبَيْتِ اعْدُدِ
وَالْوِتْرَ فِيهِ بَعْدَ وِتْرٍ عَنْ مَرَامْ كَلَامِ دُنْيَا حِذْ وَعَنْ لَغْوِ الْكَلَامْ
تَــرْكُ الْمُجَــالَسَةِ لِلــنِّسَاءِ لِغَيْرِ حَاجٍ فَهْــيَ أَيُّ سَاءِ
وَقِلَّةُ الْكَلَامِ فِي الْعَقْلِ تَمَامْ وَالْمَرْءُ حَمْقُهُ بِكَثْرَةِ الْكَـلَامْ

ما تكره بعد صلاتك إلى آخر النهار. وفي الخبر (ركعتا الضحى تجلب الرزق وتنفي الفقر) **«ووقت نوم الليل تتلى الواقعه»** فقراءة سورتها مجلبة خصوصا بالليل وقت النوم. **«وسورة الملك مع المزمل والليل والشرح اتلها تستكمل إدامة الطهر»** أي الوضوء، قال في النصيحة : وإدمان الوضوء موجب لسعة الخلق وسعة الرزق ومحبة الحفظة ودوام الحفظ من المعاصي والمهلكات فقد جاء : (الوضوء سلاح المؤمن) وهو مجرب. ابن زكري : القيام بعبادة الله تعالى من حيث هي يسهل أمر الرزق، لكن الصلاة عماد الدين وهي منه بمنزلة الرأس من الجسد فلها مزيد اختصاص بذلك. وقد ذكر في تحفة المريد من فوائدها سعة الأرزاق، والطهارة مفتاحها وأعظم شروطها فكان لها دخل تام. انتهى منه باختصار.

«حضور المسجد قبل الندا» أي الأذان **«والفجر في البيت»** أي أداء سنته فيه **«اعدد»**ه من ذلك؛ لقوله عليه السلام : (من صلى سنة الفجر في بيته يوسع له رزقه ويقل المنازعة بينه وبين أهله ويختم له بالإيمان) **«و»** اعدد **«الوتر فيه»** أي في البيت و**«بعد وتر عن مرام»** أي مطلب **«كلام دنيا حد»** فلا تتكلم بعد الوتر بكلام الدنيا **«و»** حد **«عن لغو الكلام»** فلا تتكلم بكلام غير مفيد لدين ودنيا، وقد قيل : من اشتغل بما لا يعنيه يفوته ما يعنيه. **«ترك المجالسة للنساء لغير حاج»** لمجالستهن **«فهي أي ساء»** أي قبيح. وقد قال العز في قواعده في سرد أمثلة الاقتصاد ما نصه : ومنها زيارة الإخوان لا يكثر منها بحيث يملونه ويستثقلونه ولا يقل منها بحيث يشتاقونه ويعتبونه، ومنها مخالطة النساء لا يكثر منها بحيث تغلب عليه أخلاقهن ولا يقللها بحيث يتأذين بذلك. **«وقلة الكلام في العقل تمام والمرء حمقه بكثرة الكلام»** كيف لا وهو تضييع عمر نفيس في تكلم بكلام خسيس ؟

وَلَاَزِمِ الْوَارِدَ مِنْ أَذْكَارِ مِنْ حَمْدٍ اوْ دُعاً أَوِ اَسْتِغْفَارِ
وَزَادَ فِي الْعُمْرِ وَصْلُ الرَّحِمِ وَالْبِرُّ مَعْ تَرْكِ أذىً لِلْمُسْلِمِ

قال علي :

إذا تم عقل المرء قل كلامه وأيقن بحمق المرء إن كان مكثرا

ابن القيم : أربعة تزيد في العقل : ترك الفضول في الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين، ومجالسة العلماء. **«ولازم الوارد من أذكار»** تزيد في الرزق، فذلك من أسباب زيادته **«من حمدٍ او دعا أو استغفار»** ومن صلاة على النبي ﷺ، فمما يزيد في الرزق أن يقول كل يوم بعد انشقاق الفجر إلى وقت الصلاة : سبحٰن الله العظيم سبحٰن الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه مائة مرة، وأن يقول : لا إلٰه إلا الله الملك الحق المبين كل يوم صباحا ومساء مائة مرة، وأن يقول بعد الفجر كل يوم : الحمد لله وسبحٰن الله ولا إلٰه إلا الله ثلاثا وثلاثين مرة، وبعد صلاة المغرب أيضا، ويستغفر الله سبعين مرة بعد صلاة الفجر، ويكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومن الصلاة على النبي ﷺ، ويقول يوم الجمعة سبعين مرة : اللهم اغنني بحلالك عن حرامك واكفني بفضلك عمن سواك، ويقول هذا الثناء كل يوم وليلة : أنت الله العزيز الحكيم، أنت الله الحليم الكريم، أنت الله خالق الخير والشر، أنت الله خالق الجنة والنار عالم الغيب والشهادة عالم السر وأخفى، أنت الله الكبير المتعال، أنت الله خالق كل شيء وإليه يعود كل شيء، أنت الله ديان يوم الدين لم تزل ولاتزال، أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، أنت الله لا إلٰه إلا أنت الرحمٰن الرحيم، أنت الله لا إلٰه إلا أنت الملك القدوس السلام المومن المهيمن العزيز الجبار المتكبر لا إلٰه إلا أنت الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم. وفي سنن المهتدين : من أحب أن يكثر ماله ويبارك له في رزقه فليقل كل يوم سبعين مرة : أستغفر الله ربي إنه كان غفارا.

«وزاد في العمر وصل الرحم» ففي الخبر (من أحب أن يبسط له في رزقه

كِذَا كِبَارُ السِّنِّ أَنْ يُعَظَّمُوا وَوَارِدُ الأَذْكَارِ فِي ذَا يُنْظَمُ
وَلْتَحْتَرِزْ عَنْ قَطْعِ رَطْبِ الشَّجَرِ نَعَمْ يَسُوغُ الْقَطْعُ عِنْدَ الضَّرَرِ

وينسأ له في أجله فليصل رحمه)[118] وروي عنه عليه السلام : (إن العبد ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاثة أيام فيزيد الله أجله ثلاثين سنة وإن الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من أجله ثلاثون سنة فيرد أجله إلى ثلاثة أيام) وقد قلت :

حَقِيقَةً تَزِيدُ فِي الْعُمْرِ الصِّلَةْ لِرَحِمٍ كَمَا الْقَرَافِي قَبِلَهْ
فَهْيَ لِذَاكَ سَبَبٌ مُسْتَدْعِي نَصَّبَهُ اللَّهُ بِوَضْعٍ شَرْعِي
وَضَعَّفَ الَّذِي فَرِيقٌ سَلَكَهْ مِنْ أَنَّ ذَاكَ الزَّيْدَ زَيْدُ الْبَرَكَهْ
عَلَيْكَ بِالْفُرُوقِ وَاقْبَلْهَا بَلِ مَا قَبِلَ ابْنُ الشَّاطِ مِنْهَا فَاقْبَلِ

فيه إشارة لقول عمر الرجراجي : عليك بمطالعة القواعد والفروق ولكن لا تقبل منها إلا ما قبله ابن الشاط. **«والبر»** أي الإحسان **«مع ترك أذى للمسلم كذا كبار السن أن يعظموا»** وفي الأخبار أن من عظم الشيوخ الكبار السن يعطى له مثل عمرهم، ومن ذلك خبر (ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه)[119] ابن العربي : قال العلماء : فيه دليل على طول العمر لمن أكرم المشيخة. **«ووارد الأذكار في ذا»** الذي يزيد في العمر **«ينظم»** فمن ذلك أن يقول حين يصبح ويمسي كل يوم ثلاث مرات : سبحٰن الله ملء الميزان ومنتهى العلم ومبلغ الرضى وزنة العرش. **«ولتحترز عن قطع رطب الشجر»** فالتحرز عن قطع الأشجار الرطبة يزيد في العمر **«نعم يسوغ القطع عند الضرر»** أي الضرورة المقتضية من طبخ ونحوه.

وقد نظم علي الأجهوري ما يزيد في العمر بقوله :

زيادة عمر بالسلام على الذي لقيت وتسريح دواما للحية
مع الرأس أيضا والتصدق والصله لأرحامه أو واحد فتثبت

---

(118) رواه البخاري.

(119) الترمذي.

وَأَسْبِغِ الْوُضُو وَبِالتَّعْظِيمِ صَلِّ الصَّلَاةَ لِلْعَلِي الْعَظِيمِ
وَالصِّحَّةَ احْفَظْ وَتَعَلَّمْ بَعْضَا طِبٌّ وَمَا يُؤْثَرُ مِنْهُ يُرْضَى

أي واحد منها كاف في تحصيل ذلك. وزاد كنون الاشتغال بالحديث والعلم والعدل في الحكم بين الناس. **«وأسبغ الوضو»** وإسباغه إتمام سننه وآدابه **«وبالتعظيم صل الصلاة للعلي العظيم»** ابن القيم : لا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن وإذابة أخلاطه وفضلاته ما هو أنفع شيء له، سوى ما فيها من صحة الإيمان وسعادة الدنيا والآخرة، وكذلك قيام اليل من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن هو استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة ثانية فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان)[120] **«والصحة احفظ»** بعدم إلقاء النفس في المهالك، وبوقايتها من حر وبرد، فملازمة أسباب الصحة مزيدة في العمر، فينبغي لطالب العلم أن لا يستهين بصحة بدنه حفظا وعلاجا، فهي مما يعين على طلب العلم في الجملة بإذن الله تعالى بعد حصول الفهم والقريحة، قاله اليوسي. **«وتعلم بعضا طب»** أي من علم الطب المبين فيه أحوال بدن الإنسان من حيث الصحة والسقم. قال في النقاية : علم الطب علم يعرف به حفظ الصحة أن تذهب وبرء المرض الحاصل. اليوسي : هو العلم الباحث عن بدن الإنسان من حيث ما يكون به حفظ الصحة عليه أو إزالة المرض عنه وموضوعه بدن الإنسان من حيث ذلك **«وما يوثر منه»** عن النبي ﷺ **«يرضى»** فلابد للطالب من التبرك بالآثار الواردة في الطب، وهو من العلوم المستحبة معرفتها فقط كما للقلشاني. قال في النشر الطيب : وجعله بعضهم من فروض الكفاية وهو الظاهر؛ لأن فائدته حفظ البدن الذي هو مركب النفس؛ لتتفرغ لطلب كمالها عاجلا وآجلا، وقد قيل : المحافظة على الأبدان آكد من المحافظة على الأديان؛ لأنه إذا عدم البدن عدم الدين.

(120) متفق عليه.

وقد ختم ابن القيم كتابه : الطب النبوي بوصايا كلية نافعة.. منها : قال الحارث : من سره البقاء ــ ولا بقاء ــ فليباكر الغداء وليعجل العشاء وليخفف الرداء وليقل غشيان النساء. وقال الحرث : أربعة تهدم البدن : الجماع على البطنة، ودخول الحمام على الامتلاء، وأكل القديد، وجماع العجوز. ولما احتضر الحرث اجتمع إليه الناس فقالوا : مرنا بأمر ننتهي إليه من بعدك، فقال : لا تتزوجوا من النساء إلا شابة، ولا تاكلوا من الفواكه إلا في أوان نضجها، ولا يتعالجن أحدكم ما احتمل بدنه الداء، وعليكم بتنظيف المعدة فإنها مذيبة للبلغم مهلكة للمرة منبتة للحم، وإذا تغدى أحَدكم فلينم على أثر غدائه ساعة، وإذا تعشى فليمش أربعين خطوة. وقال الشافعي رحمه الله تعالى : أربعة تقوي البدن : أكل اللحم، وشم الطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، ولبس الكتان. وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع، وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحامض، وأربعة تقوي البصر : الجلوس تجاه الكعبة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف المجلس. وأربعة توهن البصر : النظر إلى القذر، وإلى المصلوب، وإلى فرج المرأة، والقعود مستدبر القبلة.

وقال طبيب المامون : عليك بخصال من حفظها فهو جدير أن لا يعتل إلا علة الموت : لا تاكل طعاما وفي معدتك طعام، وإياك أن تأكل طعاما تتعب أضراسك في مضغه فتعجز معدتك عن هضمه، وإياك وكثرة الجماع فإنه يقتبس نور الحياة، وإياك ومجامعة العجوز فإنه يورث موت الفجأة، وإياك والفصد إلا عند الحاجة إليه، وعليك بالقيء في الصيف.

وقيل لجالينوس : مالك لا تمرض ؟ فقال : لأني لم أجمع بين طعامين رديئين ولم أدخل طعاما على طعام ولم أحبس في المعدة طعاما تأذيت به.

وقال جالينوس لأصحابه : اجتنبوا ثلاثا وعليكم بأربع ولا حاجة لكم إلى طبيب : اجتنبوا الغبار والدخان والنتن، وعليكم بالدسم والطيب والحلوى والحمام ولا تاكلوا فوق شبعكم. انظر بقية كلامه.

فائدة : ابن جزي : من الناس من اختار التداوي لقول رسول الله ﷺ :

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كَمَالِـهِ ثُـمَّ عَلَى مُحَمَّـدٍ وَآلِـهِ
صَلِّ إِلَهَنَـا صَلاَةً دَائِمَـهْ وَأَوْلِ تَوْفِيقاً وَحُسْنَ خَاتِمَهْ

(تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء)[121] ومنهم من اختار تركه توكلا على الله وتفويضا إليه وتسليما لأمره تبارك وتعالى، وروى ذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبه أخذ أكثر المتصوفة.

«والحمد لله على كماله ثم على محمد وآله صل إلٰهنا صلاة دائمه وأول توفيقا وحسن خاتمه» آمين.

هذا آخر ما تيسر من هذا التعليق والحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات، وأنا أسأل الله العظيم أن ينفع به النفع العميم، وأن يجعله من العمل الصالح المقبول، وأن يبلغنا به أقصى المأمول، ووافق الفراغ منه ضحوة الأحد الثاني عشر من صفر سنة أربع عشرة بعد أربعمائة وألف، والحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه ويكافىء مزيده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين وكل من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

(121) نصب الراية، ونحوه في أبي داوود والترمذي وابن ماجه.

الفهرس